

UNIVERSAL
LIBRARY

OU_190135

UNIVERSAL
LIBRARY

خُلَيجَةُ أَمْرِ الْمُؤْمِنِينَ

﴿تَأْلِيفُ﴾

المصلح الاسلامي الزعيم العربي الشهيد السوري

السيد عبد الحميد الزهرراوي

﴿كُتِبَتْ لِمَجَلَّةِ الْمَنَارِ وَنُشِرَتْ مُتَفَرِّقَةً فِيهَا﴾

﴿وَجُمِعَتْ مِنْهَا فِي هَذَا الْكِتَابِ﴾

وَحَقَّقَ الطَّبَعُ مَحْفُوظَةً لِادَارَتِهَا

(الطبعة الثانية بمصر سنة ١٣٤٥هـ)

مَطْبَعَةُ الْمَنَارِ بِمِصْرَ

مقدمة الطبعة الثانية

﴿ للنشر ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

يا نساء النبي لستن كأحد من النساء ان اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض وقلن قولا معروفاً * وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى وأقمن الصلوة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويظهركم تطهيراً * وأذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة ان الله كان لطيفاً خبيراً * إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقنتين والقنت والصدقين والصدقات والصبرين والصبرات والخشعين والخشعت والمتصدقين والمتصدقات والصميمين والصميمات والحفاظين فروجهم والحفظت والذكرين الله كثيراً والذكريات أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً (سورة الاحزاب ٣٣-٣٥)

ان الاطلاع على سير عظماء البشر من الرجال والنساء، أعظم وسائل التربية والتهذيب لان مدار رحاها على قطب التأسي والاقتداء ، فلا شيء يفعل في جميع الأنفس فعل الاسوة

وقد كثرت في هذه السنين المطبوعات العربية ولكن أكثرها يفسد أخلاق من يقرأها ويبلبل أفكارهم وآراءهم ، وأشدّها إفساداً وبلبلاً تلك القصص الوضعية التي يسمونها الروايات ، وأشد قراها شغفا بها أكثرهم غواية نفس واضطراب فكر بها وهم الفتيان والفتيات

وقد قصر سلفنا وفضلاء خلفنا في تهنيف القصص والسير التي تصلح للمطالعة بأسلوبها السهل المشوق وموضوعاتها النافعة المقومة للاخلاق المنورة للأفكار ، ولعل هذه السيرة الشريفة لتلك السيدة الجليلة التي اشتهرت في عهد الجاهلية بلقب « الطاهرة » وكانت في عصر الاسلام أولى أنصاره ، ومصاييح أنواره ، من افضل ما كتب في هذا الشأن وأفعه

وأما الكاتب لها فهو السيد عبد الحميد الزهرراوي احد افراد النابغين ، وأفذاذ المصلحين ، وشهداء الوطنيين السوريين ، وعلمائهم المستقلين ، وكتابه المجيد ، قدس الله روحه ، وسقى صيب الرحمة الواسعة ضريحه ، وانني لا اعرف احدا من فضلاء هذا العصر أجمع الذين عرفوه من جميع طبقات الناس وشعوبهم ومللهم على الاعجاب بأخلاقه وشأئله كما أجمعوا عليه

ولعل هذه السيرة أفصح ما كتبه عبارة ، وأوضحها اشارة ، وأظهرها مغزى ومراداً ، فهو قد جلا فيها المعاني الدقيقة من اصول العقائد والايان بالغيب في معارض من البيان ، تفوق في جمالها معارض عرائس العوان ،

وليست السيرة كلها في خديجة نفسها فان المروي في شأنها قليل إذ كانت في عصر الامية الجاهلية وعهد ضعف الاسلام في أول نشأته ، وإغاصت سيرتها كتاباً حافلاً بخلاصة تاريخية أدبية استبطنها الكاتب من تاريخ قرش في عاصمتهم (أم القرى) وما كان من ارتقاءهم الأدبي واللغوي والاجتماعي والتجاري والسياسي الذي استعدوا به لظهور الاسلام فيهم - وبخلاصة أخرى خير منها في حكمة الأخلاق والفضائل وسلامة الفطرة والحضارة - وبخلاصة ثالثة أعلى منهما في معنى الروح والوحي وعناية الله تعالى وتكرمه للبشر بإفاحته ما شاء من العلم على من اختص برحمته منهم لاجل هدايتهم وإعدادهم لحياة اسمى من حياة الدنيا وخير وأبقى كل خلاصة من هذه الثلاث مقصودة للكاتب رحمه الله بذاتها ، فقد كان يريد أن يذكر النابتة العربية بمجد قومها إذ رآها تتعلم في مدارس الترك ومدارس الافرنج ولم يكن للتاريخ العربي نصيب من هذه ولا من تلك بل كان لكل منهما غرض سياسي في طمس تاريخ العرب وتاريخ الاسلام معاً ، وإنما كان مجد العرب الاعظم بالاسلام ومجد الاسلام الصحيح بالعرب .

وكان يتوخى تقوية الروح الاسلامي في كل نابتة اسلامية لما يراه من تنشئة المدارس

العصرية لهم على الافكار المادية، ومعاداة الفضائل الروحية، وإضعاف الجامعة الاسلامية، وكان له وراء هذا وذاك غرض آخر ذكره في اهدائه للسيرة الى روح والدته - ألا وهو عناية المسلمين بتربية البنات وتعليمهن ما تتوقف عليه حياة الملة ونهضة الامة في هذا العصر فهذا كتاب اسلوبه اسلوب القصص والروايات، تلذذته لقراءة الناشئين والنشئات، ولكن معانيه ومساائله من لباب العلوم العالية التي تفيد الراسخين في العلم والراشحات، فهو من خير كتب المطالعة للقارئ اللغة العربية وقاراتها، وكتب الحكمة الدينية لطالبيها وطالباتها،

إن الآيات التي توجنا بها صدر هذه المقدمة قد خاطب الله تعالى بها نساء رسوله خاتم النبيين، بعد وفاة السيدة خديجة ام المؤمنين، ولكنها تشاركهن فيما فضلن تعالى به من كونهن لسن كسائر النساء، بما هن من مقام الاسوة الحسنة، وما يتلى في بيوتهن من آيات الله والحكمة، وتفضلن كلهن في مساعدته صلوات الله عليه وسلامه على نشر الدعوة، والنهوض بعباء الملة، والجهاد في سبيل الله بالنفس والمال، في عهد شدة الجهد ومقارعة الاهوال

وقد قفى عز وجل على تلك الآيات، بآية (ان المساميين والمساميات) التي أشرك فيها النساء مع الرجال، فيما أعده من الجزاء على صالحات الاعمال، وأحسن الاخلاق وعقائل الفضائل والحلال

طبعت هذه السيرة الجليلة الطبعة الاولى في عهد مؤلفها رحمه الله تعالى سنة ١٣٢٦ وقد نفذت نسخها منذ بضع سنين أو أكثر، وكثرت مطالبة الناس لنا باعادة طبعها فلم يتيسر لنا ذلك الا في أواخر هذا العام (١٣٤٥) وقد كثر سواد المتعلمين من المساميين عامة والعرب خاصة ولا سيما العرب المصريين أو مسلمي المصريين، فعسى ان يكون الاقبال على قراءتها على نسبة الزيادة في عدد القارئين والقارئات، وان كنا نعلم ان الكثير من الفريقين قد تعلم تعليما افسد العقائد والاخلاق، وجنى على الفضائل والآداب. وارجو من كل قارئ لها ومستفيد منها ان يدعو لمؤلفها ونشرها بحسن الثواب، والحمد لله واليه المآب، ونسأله ان يؤتينا الحكمة وفصل الخطاب (وما يتذكر الا اولو الالباب)

صديق المؤلف

محمد ربه رضاء

اهداء المؤلف السيرة الى روع والدته

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ ذكر الله تعالى والثناء عليه والشكر له قبل كل شيء ﴾

دخل هذه الدار عدد لا يحصى من بني آدم بمجموعهم عمرت القرى والامصار، وتحركت أقلام العلوم والاعمال، وتعاقبت أسلاك الاجتماع والاحوال، وإذا فتحت كتب السير والتاريخ لتجد ذكرأ لعُشر من دخلها ولا لعُشر عشرهم ولا للواحد في الألف، ولا للواحد في ألف الالف منهم، فلهذا يُعني المؤرخون بهذا القليل من بني آدم ويهملون الكثير منهم؛

ليس بعجيب ما صنم المؤرخون فان الاكثرين من بني آدم متشاكلو السيرة، متشابهو الحالة والغاية، على ما بين سيرهم من التغير، وبين أحوالهم من التفاوت، وذلك ان حاصل أمرهم تعب وكد ومزاحمة وحيرات وحسرات في تحصيل ما اشتبهوا أو تعودوه من المطالب جل أو حق، فهاذا عسى أن يذكر المؤرخ من حكايات هؤلاء التي يمكن أن تكتب كلها هكذا « جاؤا إلى هذه الدنيا فاشتغلوا بأسباب معاشهم وعاشوا خاضعين للغالب وذهبوا غير تاركين أثر في هذه الدار إلا ان كان ولدأعلى شاكلتهم » وأما أولئك الافراد القليلون الذين لهم بعد مماتهم وجود ظاهر بالآثار فان في سيرهم للتاريخ ذخراً من غرائب الاستعداد الانساني، وبدائع مظاهره، وجلال ما ربه، وأمثلة التفاوت بين أفراده، والارتقاء والتكامل في مجموعته، بواسطة آحاد من جملته، وبذلك يستمد التاريخ جدته كل يوم، ويأخذ المزيد لرونقه عند كل فرد وكل قوم

وأولئك الافراد صنوف : فرسول مبشر، وحكيم مبصر، وكاتب مفكر، وشاعر مذكر، وقاتح مغير، ومخترع محير، وكاشف منور، وباحث مصور، واجتماعي محوّر، وشرعي مقرر، ونصاح مبرر، ولساني مفسر، ومفضل ميسر

هؤلاء الصنف أقطاب التاريخ على أخبارهم يدور ، وما أثرهم مشاركة منها يستمد النور، ووراءهم في الذكرياتي من اشتهروا بخلق من الاخلاق ، ومن عرفوا في عشرة بطيب الاعراق ، ومن هنا يظهر لنا أن الشهرة ليست بشيء عند التاريخ إذا لم تؤيد بما تره ، ولولا هذا لتعب المؤرخون في سرد أسماء كثيرة لا يستطيعون ان يبيضوا وجوه دفاثرهم بشيء من اعمال اصحابها من كانوا كبار في العميون لانهم ابناء اماجد مثلاً ، وهم لم تعجد لهم همة ، ولم تؤثر عنهم منقبة ، ويظهر لنا ايضاً ان إعراض التاريخ عن ذكر من لم تبهر ما أثرهم هو احسن درس في الاخلاق ألقاها علينا المؤرخون عن عمد او بالتصادف وذلك لان النفوس انما يغريها بالباقيات الصالحات تذكار اهلها وتمداحهم ، وإلما ينههها عن الخمول سرعة انطفاء الحاملين ، وطول إشراق الباقي ذكرهم في العالمين

نعم ان من لهم الباقيات الصالحات التي يبقون ويذكرون بها هم أفضل الحداة بالنفوس وأنهم بها الى المكرمات فحكاية احوالهم هي افضل ما خذ الاخلاقيين الذين يجتهدون في ان يفهموا قارئهم كيف يتكلم الانسان وكيف يصير من الاقطاب اقطاب التاريخ



اللهم اني استسقي جودك وإحسانك لأرواح المؤرخين الذين تركوا كنوزاً كثيرة لنفوسنا من سيرة الأقطاب من آبائنا ، وأسئلك عن زلتها أكثرهم من حيث لا يشعرون وهي إلهام كثير آمن سيرة الأقطاب من امهاتنا

لقد علمنا ان الفرق ليس بكبير في الفطرة بين الرجل والمرأة ، وليست المرأة بحرومة من المزايا التي يعلو قدر المتحلي بمثلها من الرجال ، ذلك أننا نرى هن عقولا سليمة ، وقلوباً كريمة ، وهما عظيمه ، وهن للرجال ينايع للمكارم غير هذه القول والقلوب والهمم ؟ ورى الاديان اعترت المرأة كالرجل في التكليف بالعقيدة والعبادة والآداب . ورى الاجتماع اعتبر المرأة كالرجل في التكليف بالعمل وما زال نصيبها منه كبير أو تابعاً لتقسيم الاعمال على حسب مرتبة محيطها من العالم ، ثم على حسب مرتبتها من محيطها . وهذا غير ما نعلمه من فضل بعض الفاضلات الماضيات اللاتي تصلح سيرهن أن تكون هدى للرجال قبل النساء ، ولولا تلك الزلة التي ذكرناها للمؤرخين لسكن اللاتي نعلمهن أكثر وما اللاتي نعلمهن الآن من الفاضلات بقلائل

من هؤلاء سيدة قد سمع بفضلها العالم كله وسكن العارفين بتفاصيل فضائلها ومزاياها قليلون . الشرق سمع بهذه السيدة والغرب ، الترك يعظمون اسمها والعرب ،

وفارس والهند ، والافغان والسند، وفي ارض الصين تعظم ، وفي الدنيا الجديدة تكرم ، وإذا فتحت دفاتر المؤرخين عفا الله عنهم لا تجد فيها تحت اسم هذه السيدة الجليلة الا كلمات يسيرة في ترجمة حالها ، وشرح خلاها ، ولكننا نحن شاكر وهم على هذه الكلمات التي يملأ سناها العقول والقلوب فتهدي بها على قلبها إلى عظيم أمرها كما يدرك المبحرون عظمة المنار إذا كانت أشعته عظيمة السطوع

ولقد كنت تفكرت في أن أ كافيء والدتي بعض المكافأة فتبينت بعد طول التفكير ان عظيم فضلها علي هو أبعد من أن يوفى شيء من حقه ، ولكن تراءى لي انه يسرها أن أعلن للملأ فضل جنسها وأذكرهم بما نسوه من احترام حقوق هذا الجنس ، ولم أجد أحسن طريقة إلى هذه الغاية الجليلة من شرح سيرة هذه السيدة التي هي إحدى جداتها

فمن مددتلك الكلمات القليلة التي تركها لنا المؤرخون في ترجمة حال هذه السيدة أؤلف هذه القصة الحقيقية ، وإلى روح والدتي أرفعها هدية على راحة خشوعي وضعفي ، ومن خزان رحمة الله ورضوانه أستنزل تحية طيبة مباركة لهذه الروح البارة ومن راقه هذا المؤلف الصغير وحصلت له بهلذة وفائدة فلي حق أن أرجوه شيئاً ولا أرجوه الا أن يكون مساعداً في إقامة حقوق المرأة وكرامتها وآدابها . ان النساء امهاتنا معشر الرجال وعلى حسب تربيتهم نكون ، فلنطلب من محيطنا أن يهذب بالعلم الأمهات ويسعى لترقية مداركهن وآدابهن

عبدالمجيد الزهراوي



مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

قبل ثلاثة عشر قرناً على الحساب القمري حدث في الكون حادث عظيم جداً لم يحدث بعده مثله الى الآن . كان له دوي قوي وأثر كبير في آسيا وأوروبا وأفريقيا . وخلفه انقلاب عظيم في ممالك الارض وتغير جسيم في أحوال الأمم والشعوب . ذلك الحادث هو قيام العرب بعقبة جديدة وانضمامهم جميعاً إلى كلمة النبي الذي قام فيهم منهم وهو محمد عليه الصلاة والسلام . وشروعهم جميعاً بالهجوم على الممالك . وفوزهم بهذا الهجوم . وانتصارهم وغلبتهم على الأمم . وانضمام أمم كثيرة إلى عقيدتهم ، وتكون مسكنهم العظيم من حدود الهند الى البحر الاطلتيكي شرقاً وغرباً ومن سواحل البحر الاحمر الى سواحل بحر قزوين شمالاً وجنوباً في أسرع ما عرف في التاريخ كله من الفتوحات الكبيرة السريعة

هذا الحادث العظيم يتلقاه بعض الناس بغير تفكير كأنه معتاد الحدوث كثيراً . فلا يبحث هؤلاء عن سر حدوثه ولا يريدون أن يستفيدوا من التدبر والتفكير بسر ذلك النجاح العظيم الذي أوتي به أولئك القوم بسرعة

جديرة أن نسميها بلمح البصر . وبعضهم يتفقاه كما هو أي يفهم أنه حادث من أكبر الاحداث التي حدثت في الدنيا ويراه جديرا بالبحث والتأمل وامعان النظر ، ولدى التأمل نجد هناك جزئين تم بهما هذا الحادث العظيم الاول النبي محمد عليه الصلاة والسلام والثاني الذين آمنوا به ونصروه . من العرب . وبديهي أن أول مؤمن به هو صاحب الفضل الاول بعد النبي في إقامة هذا الصرح العظيم

ومن الامور التي يحق أن يفخر بها جنس النساء ان هذا الفضل الاول أي السبق بالايمان به والموافقة له كان نصيب سيدة من أشراف قومه هي زوجته السيدة خديجة بنت خويلد من قريش . ولما كانت سيرة هذه السيدة الشريفة المساعدة في وضع الاحجار الاولى من هذا الحادث العظيم لا تخلو بالبداهة من فوائد جسيمة أزمعت أن أقدم في هذه الاوراق لمحي الفوائد الادبية والاجتماعية والسياسية والتاريخية أعظم هدية مفتظفا هذه الثمرات من دوحة حياة هذه السيدة الجليلة ولكن رأيت من اللازم جدا قبل دخولي بالقاريء على سيرتها ان أمرّ به مرة على قومها العرب عامة ثم قريش خاصة فان تعرفه بهم يساعد على معرفة هذه السيدة الجليلة

العرب

العرب كسائر الامم أوائلهم مجبولة ، وأحوالهم منذ عرفوا معروفة ، نقف الآن عند هاتين الكلمتين وملتفت قليلا الى مبحث لطيف نختصر فيه الكلام ثم نعود الى سياق حديثنا

يزعم كثير من الاقوام أنهم يعرفون أصول أممتهم إلى أي البشر الاول ومن الاقوام من يزعمون أنهم يعرفون سلاسل أصول الامم كلها حتى يصلوا بها الى ذلك الاصل الاول

ومن التزم التحقيق لا يستطيع أن يجزم بشيء مما يدكر عن تلك الاصول والاوائل . ومن تسامح بتصديق ما يروى يتشابه عليه الامر فيحار في تصديق المتناقضات ، والترجيح بين المختلفات ، ومهما جنح الحريص على المعرفة الى الاستئناس بما يمكن قبوله من الحكايات في هذا الباب لا يستغني عن طرح كثير منها مما تقوم الادلة على بطلانه

لماذا حرص كل الشعوب على معرفة أسلافهم الى أول أصل ؛ لاندري ولكن يلوح لنا أنه لذت للاكثرين دعوى هذه المعرفة فابتدع كل قوم اسطورة في بيان أصلهم ينقلها الآباء للابناء ويسطرونها في كتبهم تسطيراً

أما الباحثون عن أنساب الشعوب فلما يتسوا من هذه المعرفة قنعوا بأن تكون لهم معرفة ما بأصول الشعوب التي وجدوها متتاربة في اللغات وغيرها من المميزات وقد آنسوا من كثرة البحث والاستئناس بالمنقول ان البشر المعروفين اليوم هم من ثلاث سلالات (١) السامية و (٢) الارياية و (٣) التورانية

وظاهر من هذا أنهم لما أرادوا وضع أسماء للاصول القليلة التي تفرعت منها هذه الشعوب المعروفة تساهلوا بقبول بعض ما لفق في كاية البشر مما قبل التاريخ ولكن هذا لا يروي في الحقيقة غليل الخلقين ولا غليل الخياليين فسيظل المحققون صابرين على جهل مثل هذا ، ويبقى

الخياليون مستمسكين بما قد حكى لهم من قبل وربما تسلى بحب الحقيقة
عن احتجابها برؤية تماثيلها وماتماثيلها الا أساطير الاولين
أما نحن فنرى أنه لا حاجة للتسلي بتلك الاساطير لاننا اذا اشتبهنا
المعرفة فأمامنا مما قد نستطيع معرفته ما تنفذ مراحل أعمارنا من غير أن
نقطع في ميدانه شوطاً بعيداً ، وما الوصول الى غاية في هذا الميدان مما
يجوز أن نطمع فيه

فاذا أردنا الآن أن نعرف العرب فعلياً قبل كل شيء أن نرجع أنفسنا
من الطمع بمعرفة سلسلتهم الآدمية الى آدم أو الى نوح بالتفصيل كما قطعنا
طمعها من معرفة ذلك في سائر الأمم فهذا لا حاجة الى ما ذكره
علماء الانساب من كون هذا الجيل من الاجيال السامية اذ يقال أنى لهم
العلم بسام أي الشعوب السامية وكيف ينتمي أهل الفن مباديء على شيء غير
معروف بالطرق التي تهيد العلم اليقيني؟ وما أغنى من يريد أن يعرف جيلاً
كالعرب عن الاستعانة بأساطير الاولين

يقول المؤرخون إن العرب ثلاثة أقسام (١) بائدة و(٢) عاربة و(٣)
مستعربة ، اما البائدة فهم العرب الاول الذين ذهب عنا تفاصيل أخبارهم
لتقدم عهدهم وهم عاد ، وثمود ، وطسم ، وجديس ، وجرهم الاولى ، وأما
العرب العاربة فهم عرب اليمن من ولد قحطان ، والعرب المستعربة هم
ولد اسماعيل بن ابراهيم

هذا قولهم وهو لا يمجني لان البائدة ليست موجودة حتى تعدّ
وان كانوا يعدونها لان منها اشتق غيرها فهذا شهادة بأنهم لم تبد . وقد

ذكروا في هذا التقسيم عرب اليمن من ولد قحطان قسماً مستقلاً ولم يذكروا لنا من هو قحطان هذا . وذكروا أولاد اسماعيل بن ابراهيم قسماً مستقلاً ولم يأتوا بدليل قويم على أنه تفرع من اسماعيل ذرية مستقلة هم العرب المستعربة . وجل ما ذكره ان اسماعيل الذي كان غريباً في جوار مكة المكرمة تزوج بامرأة عربية من تلك القبائل التي كانت حولها . فهل انقطع نسل تلك القبائل حتى أصبح لا يذكر إذا ذكر العرب ثم تبارك نسل اسماعيل الغريب وحده حتى صار قسماً مستقلاً هو ثالث ثلاثة أو ثاني اثنين إذا ذكر العرب ؟ لسنا ندري ولكننا نعرف أن هذا من جملة الأقوال التي تكتسب بكثرة الموافقة في مرور القرون صبغة لا تزول فتغر الاكثرين وهي في الحقيقة لا تصبر على النقد والحك فليت أولي الالباب يكثر من حك هذه المشهورات

وانما يعجبني جداً في هذا الباب ما روي من أن النبي العربي عليه السلام كان إذا انتسب يتقف عند عدنان ولا يتجاوزوه ويقول « كذب النسابون »^(١) ويعني بذلك الذين يزعمون معرفة الانساب الى آدم أو الى نوح وأما الذي لا يغير النقد من سطوع جوهره شيئاً فهو أن العرب يوم ظهر فيهم النبي الذي أعلى شأنهم كانوا متفرقين في أقطار جزيرة العرب ومنقسمين قبائل كل قبيلة تذكر لنفسها نسباً تتقف فيه عند رجل معروف لديها وتمسك عما وراءه . والمشهور أن لقبائل الحجاز أصلاً ، ولقبائل اليمن أصلاً آخر ، وللقبائل بعد ذلك أصول متفرعة من أحد الاصلين .

(١) رواه ابن سعد وابن عساكر عن ابن عباس وتسمته : قال تعالى « وقرونا بين ذلك كثيراً » ولكن ثبت في أحاديث أصح من هذا أنه « ص » من ذرية اسماعيل وخاطب الله تعالى قومه بقوله « ملأ أيكم ابراهيم » وكتبه محمد رشيد رضا

وعرب العراق والشام ترجع الى أحد هذين الاصلين أيضا ، فعدنان هو أبوعرب الحجاز غالبا . وقحطان هو أبوعرب اليمن والعراق والشام غالبا . وإن قل قائل كيف عرف هذا عن العرب وهم أهل بادية منشتون منفردون يتقاتلون متداحجون ، لا ملك لهم جامع ، ولا شرع فيهم وازع ، ولا يد لهم في الاعمال الاجتماعية . ولا نصيب لهم في الشؤون السياسية ، وليس لهم قبل الاسلام كتاب معروف تدون فيه اخبارهم ، وتذكر فيه مآثرهم وآثارهم . فمن أجل ذلك لا تجوز الثقة بما ينقل ويحكى عنهم . ولسنا نعرفهم إلا بالاسلام ، فالاسلام قد جمع الازواع من أهل هذه اللغة الواحدة على كلمة الغزو ، وهذا لا يثبت أن العرب كانوا يعرفون لقبائلهم أصولا وانهم كانوا يتعارفون بأنسابهم ؟؟

نقول لصاحب هذا القول إن العرب لم يكونوا مجبولين ولا مجهولة أخبارهم ، فإذا قلنا انهم لم يكونوا أهل كتابة وتاريخ فأشعارهم المحفوظة المنقولة هي ديوان سيرهم ، وإذا لم تثق بنقل أشعارهم استطعنا أن نعرف العرب من تاريخ الامم المجاورة لهم . فالفرس قد سبروهم لأن من العرب ملوكا كانوا لهم خاضعين ، وقوادا كانوا بأمرهم عاملين . والروم قد خبروهم لأن في مملكتهم ملوكا وقوادا وولادة من العرب ، والديانة المجوسية تعرفهم لأن منهم من كان على دين ملوك فارس ، والكنائس تعرفت بهم لأن منهم نصارى بل قسيسين ورهبانا . ويبيع اليهود دماجهايتهم ، والفلسفة ما أنكرتهم . والحضارة قد أملت بمساكنهم (في اليمن والعراق والشام) ومخالطة الامم أخذوا بقسط منها وأخذت بقسط منهم ، فكيف يكون هذا الخيل مجهولا بعد كل هذا ؟

إن العرب كانوا معروفين . ومما عرفوا واشتهروا به الحرص على وحدتهم القومية فكانوا أمام الغريب أمة واحدة ، لها وحدة باللغة والنسب واتصال الديار والعصبية عند التناصر ، فإذا رجعوا إلى ما بينهم كانوا قبائل شتى تنتمي كل قبيلة إلى أب لها ثم يجمع قبائل كثيرة منهم أب واحد وهكذا ولا يستبعد من أمة محتاجة إلى التناصر وليس لها كسائر الأمم كتاب يجمع أخبارها وسير أبطالها أن يعنى كثير من أفرادها بحفظ ذلك في أذهانهم ، وأمة من ترى يتنامى أفرادها سيرة أبطالهم ، وقد كان الرجل من العرب إذا عظم أمره أو كثرت ماله انفرد بأهله وانتمت إليه الذرية ووضعوا لأنفسهم نسبة جديدة من غير أن يضيعوا حضهم من الارتباط بالنسبة الأولى لأن لهم عند التناصر حضاً منها عظيماً

بذكر أحد علماء هذا الشأن أن العرب كانت قبائلهم أرحاء وهاجم فالأرحاء هي القبائل التي أحرزت دوراً وميائهما لم يكن للعرب مثلها ولم تبرح من أوطانها ودارت في دورها كالأرحاء على أقطابها ، إلا أن ينتجع بعضها في البرحاء وعام الجذب . والهاجم هي القبائل التي يتفرع من كل واحدة منها قبائل اكتفت باسمائها دون الانتساب إليها فصارت كأنها جسد قائم وكل عضو منها مكثف باسم معروف بموضعه

وكان علم النسب من جملة علوم العرب قد أثرده عنهم أهل الرواية أول كل شيء . ونقلوا فيه حكايات كثيرة (منها) ما ذكره عن يزيد بن شيبان بن علقمة بن زرارمة بن عدس وذلك أنه رأى في منى رجلاً على راحلة ومعه عشرة شباب بأيديهم المحاجن ينحون الناس عنه ويوسعون له

فدنا منه : وقال له ممن الرجل ؟ فقال « اني رجل من ميرة من يسكن الشجر »^(١)
قال يزيد فكرهته ووليت عنه فنناداني من ورائي : مالك ؟ قلت « لست من قومي
ولست تعرفني ولا أعرفك » قال « إن كنت من كرام العرب فسأعرفك »
قال يزيد فكررت عليه راحتي وقلت « اني من كرام العرب » قال فممن
أنت ؟ قلت « من مضر » قال « فمن الفرسان أنت أم من الارحاء » فعلمت
أنه أراد بالفرسان قيسا وبالارحاء خندفا . فقلت « بل من الارحاء » قال
« أنت امرؤ من خندف » قلت « نعم » قال « من الارومة أنت أم من الجماجم ؟ »
فعلمت أنه أراد بالارومة خزيمة وبالجماجم بني أد بن طابخة . قلت « بل من
الجماجم » قال « فانت امرؤ من بني أد بن طابخة » قلت « أجل » قال « فمن
الدواني أنت أم من الصميم ؟ » فعلمت أنه أراد بالدواني الرباب ومنزلة
وبالصميم بني تميم . قلت « من الصميم » قال « فأنت اذا من بني تميم » قلت
« أجل » قال « فمن الاكثرين أنت أم من الاقلين أو من اخوانهم الآخريين ؟ »
فعلمت انه أراد بالاكثرين ولد زيد وبالاقلين ولد الحارث وباخوانهم
الآخريين بني عمر وبني تميم . قلت « من الاكثرين » قال « فأنت اذا من
ولد زيد » قلت « أجل » قال « فمن البحور أنت أم الذرى أم من النماد » فعلمت
أنه أراد بالبحور بني سعد وبالذرى بني مالك بن حنظلة وبالنماد امرأ القيس
ابن زيد . قلت « بل من الذرى » قال « فأنت رجل من بني مالك بن حنظلة » قلت
« أجل » قال « فمن السحاب أنت أم من الشهاب أم من اللباب ؟ » فعلمت أنه
أراد بالسحاب طهية وبالشهاب نهشلا وباللباب بني عبد الله بن دارم . فقلت
له « من اللباب » قال « فأنت من بني عبد الله بن دارم » قلت « أجل » قال فمن

« ١ » بكسر الشين وسكون الحاء المهمة صقع على ساحل بحر الهند من ناحية اليمن

البيوت أنت أم من الدواثر ؟ » فعلمت أنه أراد بالبيوت ولد زرارة والدواثر الاحلاف . قت « من البيوت » قال « فانت يزيد ابن شيبان بن عتمة ابن زرارة بن عدى وقد كان لا ييك امرأتان فأيهما أمك ؟



ولقد غلط من ضنوا أن العرب لم يكن لهم من حضارة وميكنوا على شيء مما عليه الامم من الروابط . كلا بل كان لهم حضارات وميكنهم التبابعة في اليمن معروف أمره عند المشتغين بالتاريخ . ومملوك خيرة (في العراق) مشهورون . من عرف تاريخ الفرس عرفهم وان جهل تاريخ العرب . أولهم مالك بن فهم بن غنم بن دوس من سلالة الازد من ولد كهلان بن سبا بن يشجب بن يعرب بن قحطان وكان ملكه في أيام مملوك الطوائف الفارسيين ومملك بعده أخوه عمرو بن فهم . ثم ملك بعده عمرو ابن أخيه جديمة الابرش بن مالك بن فهم وجديمة هذا هو صاحب الحديث المشهور مع الزباء (زنوبيا) صاحبة تدمر وخلاصة الحديث فيما يروي مؤرخو العرب ان جديمة قتل أباه فاحتالت عليه الزباء وأطمعته في نفسها حتى اغتر وقدم اليها فقتلته وأخذت بشار أبنها . وبعد قله انتقل الملك الى يد ابن أخته عمرو اللخمي جد المملوك المناذرة اللخمين .

والمملوك الغسانيون في الشام مشهورون أيضا لانجبارهم من عرف تاريخ الرومان إذا جهل تاريخ العرب . وأصل غسان من اليمن من بني الازد ابن الغوث ، تفرقوا من اليمن بسيل العرم . ونزلوا على ماء بالشام يقال له غسان فنسبوا اليه ، وكان قبلهم بالشام عرب يقال لهم الضجاعة من سبيح

(بوزن مليح) فأخرجتهم غسان من ديارهم وقتلوا ملوكهم وصاروا موضعهم .
وأول من ملك من غسان جفنة بن عمرو بن ثعلبة . وكان ابتداء ملكهم
قبل الاسلام بأربع مئة سنة وقيل أكثر من ذلك ، ولما ملك جفنة وقتل ملوك
سليح دانت له قضاة ومن بالشام من الروم ، وبني بالشام عدة مصانع
ولما مات ملك بعده ابنه عمرو بن جفنة ، وبني بالشام عدة ديور منها دير
حالي ودير أيوب ودير هند ، ثم ملك بعده ابنه ثعلبة بن عمرو وبني صرح
الغري في أطراف حوران مما يلي البلقاء . ثم ملك الحارث بن ثعلبة ، ثم
ملك بعده ابنه جبلة بن الحارث وبني القناطر وأذرح والقسطل ، ثم ملك
بعده ابنه الحارث بن جبلة وكان مسكنه بالبناء فبنى بها الحفير ومصنعه ،
ثم ملك بعده المنذر الأكبر بن الحارث بن جبلة بن الحارث بن ثعلبة
بن عمرو بن جفنة الأول ثم ملك بعده أخوه النعمان بن الحارث ثم ملك
بعده أخوه جبلة بن الحارث ثم ملك بعدهم أخوهم الإيهم بن الحارث
وبني دير ضخم ودير النبوة . ثم ملك أخوهم عمرو بن الحارث ، ثم ملك
جفنة الأصغر بن المنذر الأكبر ، وهو الذي أحرق الحيرة ، وبذلك
سموا ولده آل محرق . ثم ملك بعده أخوه النعمان الأصغر بن المنذر
الأكبر ، ثم ملك النعمان بن عمرو بن المنذر ، وبني قصر السويداء ولم يكن
عمرو أبو النعمان المذكور ملكا ، وفي عمرو المذكور يقول النافعة الذيباني
علي لعمرو نعمة بعد نعمة لوالده ليست بذات عقارب

ثم ملك بعد النعمان المذكور ابنه جبلة بن النعمان ، وهو الذي قابل
المنذر اللخمي بن ماء السماء : ثم ملك بعده النعمان بن الإيهم ابن الحارث
ابن ثعلبة ، ثم ملك أخوه الحارث بن الإيهم ، ثم ملك بعده ابنه النعمان

ابن الحارث وهو الذي أصلح صهاريج الرصافة وكان قد خربها بعض ملوك الحيرة اللخمين ، ثم ملك بعده المنذر بن النعمان ، ثم ملك بعده أخوه عمرو بن النعمان ، ثم ملك أخوهما حجير بن النعمان ، ثم ملك ابنه الحارث بن حجير ، ثم ملك ابنه جبلة بن الحارث . ثم ملك ابنه الحارث ابن جبلة ، ثم ملك ابنه النعمان بن الحارث . ثم ملك بعده الإيهم بن جبلة ابن الحارث وهو صاحب تدمر وكان عامله يقال له القين بن خسر وبني له قصرًا بالبرية عظيمًا ومصانع . ثم ملك بعده أخوه المنذر بن جبلة ثم ملك بعده أخوهما شر أحيل بن جبلة ثم ملك أخوه عمرو بن جبلة ثم ملك بعده ابن أخيه جبلة بن الحارث بن جبلة ، ثم ملك بعدهم جبلة بن الإيهم بن جبلة ، وهو آخر ملوك بني غسان ، وهو الذي أسلم في خلافة عمر ثم عاد إلى الروم

ومن ملوك العرب ملوك كندة الذين من سلالتهم امرؤ القيس الشاعر المشهور أولهم حجير آكل الرار بن عمرو وخالف على الملك ابنه عمرو المقصور سمي بالمقصور لأنه اقتصر على ملك أبيه ثم ملك بعده ابنه الحارث بن عمرو وقوي ملك الحارث المذكور لأنه وافق كسرى قباد بن فيروز على الزندقة والدخول في مذهب مزدك فطرد قباد المنذر ابن ماء السماء اللخمي عن ملك الحيرة وملك الحارث المذكور موضعه ففعل شأن الحارث المذكور فلما ملك انوشروان أعاد المنذر وطرد الحارث المذكور فهرب وتبعته تغلب وعدة قبائل فظفروا بأمواله وأربعين نفسًا من ذوي قرياته فقتلهم المنذر في ديار بني مرين وهرب الحارث إلى ديار كلب وبقي بها حتى مات . ومن أولاد الحارث هذا حجير أبو امريء

القيس الشاعر وكان حجير قد ملكه أبوه على بني أسد ابن خزيمة فبقي أمره متماسك فيهم مدة بعد ذلك ثم تنكروا عليه فقاتلهم وقهرهم ودخلوا في طائفة ثم هجموا عليه بغتة وقتلوه غيلة وفي ذلك يقول ابنه امرؤ القيس أيتها منيا بنو أسد قتلوا ربهم ألا كل شيء سواه جلال

وطالب امرؤ القيس بهذا الملك بعد أبيه فاستنجد ببيكر ونغلب على بني أسد فأنجدوه وهرب منهم بنو أسد وتبعهم فلم يظفر بهم ثم تخاذلت عنه بيكر ونغلب وتطلبه المنذر بن ماء السماء فتفرقت جموع امريء القيس خوفا من المنذر ، وخاف امرؤ القيس منه أيضا فصار يدخل على قبائل العرب ، وينتقل من أناس الى أناس حتى قصد السموأل بن نادية اليهودي فأكرمه وأنزله وأقام عنده ، ثم سار الى ملك الروم مستنجدا به وأودع أدرعه عند السموأل وكانت مئة وفي مسيره إلى ملك الروم قال قصيدة تشعر بالسان حاله ومنها قوله

تقطع أسباب اللبابة والهوى	عشية جاوزنا حماة وشيزرا
بكي صاحبي لما رأى الدرب دونه	وأيقن أنا للاحقان بقصيرا
فقلت له لا تبك عينك انما	نحاول ملكا أو نموت فنعدرا

وقد مات في هذا السفر بعد عودته من عند قيصر

فبالله كيف تكون مجهولة الامة التي فيها الملوك والاقبال ، وقد وقفت أمام الأئمة والأجيال سنين من الدهر ، لا يعرف لها حصر ، لعمرنك إن القول بأن هؤلاء القوم كانوا مجهولين ، وانهم كانوا متشتتين ، من غير ملك جامع ولا شرع وازع ، هو قول يرسله صاحبه من غير أن يكلف نفسه بحثا وهو لما يحط بذلك خبرا

ومتى كان العرب معروفين عند غيرهم كما أوضحنا - ولدينا مزيد - كانوا هم أحق بمعرفة أنفسهم وحفظ مفاخرهم وعصبياتهم. وما نقل اليها عنهم من ذلك ليس منه شيء فوق العقل ولا وراء الحس بل القرائن له شاهدة، وأمثاله أمام أعيننا مشاهدة، وإذا لم تجز الثقة بما ينقل من هذه الاخبار لم يكن غيرها أحق بالثقة لعمر الحق، فإن تزوير الاساطير لا يستبعد وقوعه في كل أمة من الامم ذوات الزبر والاسفار، ولست الكتب أحق بالصدق من القرائن الشاهدة والنظائر الناطقة

فمن شاء أن لا يثق بمنقول البتة لا يضر في رأيه ولا يضر التاريخ والمنقول ولا يضر العلماء الذين يحترمون التاريخ كثيرا ولا يضره وحده يقلل استفادته من المنقول ويكثر وساوسه وغروره. ثم يصل الى درجة لا يثق معها أحد بمقوله. ومن شاء أن يثق بالمنقول عن الامم دون العرب لا أناقشه لانه شهد لي على نفسه شهادة كافية ولا أزيد شيئا على ما أوضحته به أن العرب تجوز الثقة ببعض ما ينقل عنهم كما تجوز الثقة ببعض ما ينقل عن غيرهم (١)

من أجل هذا نؤمن بما نقل اليها من نسب سيدتنا التي نروي هنا سيرتها وهي خديجة القرشية فإن هذا النقل من المنقول التي لا تجد النفس حاجة للتردد في قبولها

وفدقنا أننا ان لمؤلاء العرب المعروفين وأهلين معروفين عندهم

(١) قد يقال أن الثقة بما كان يرويه النسابون والمفاخرون من العرب في عهد بداوتهم أجدر بالثقة من كثير من رواية غيرهم وتدوينه ما علم بالقطع من جودة حفظهم ومن نقد بعضهم لبعض بالشعر وفي الخيام والحجرية التي كانت عندهم ولقلة دواعي الكذب في عهد البداوة بطبعها عند كل الأمم

ومجهول ماوراءهما وهما عدنان وقحطان ، فأما قحطان فقد أخذت ذريته بحظها من الملك لأن كل ملوك العرب المشهورين كانوا من ذريته وأما عدنان فإن حظ ذريته تأخر قليلا ولكنه كان لعظمه متجاوز النسبة أي أنه لا نسبة بين حظ القحطانيين الذين كان يقوم منهم ملوك ثم ينطفيء مجدهم ، وحظ اخوانهم العدنانيين الذين أشرق منهم نورهم بين بهر العالمين أجمعين . فلذلك نلم هنا بذكر الذرية العدنانية دون الذرية القحطانية لأننا نريد أن نعرف القاريء بقوم خديجة الخصوصيين . ﴿ فعدنان ﴾ ولد له ﴿ معد ﴾ ومعد ولد له ﴿ نزار ﴾ وأولاد نزار أربعة ﴿ مضر ﴾ وإياد وربيعة وأثمار وقد فارق إياد الحجاز وسار بأهله الى أطراف العراق . ومن ذريته كعب بن مامة الايادي المشهور بالوجود وقس بن ساعدة الايادي المشهور بالفصاحة . ومن ذرية ربيعة بن نزار قبائل عنزة وبكر وواثل وتغلب ومن تغلب كليب ملك بني وائل الذي قتله جساس فهاجت لقتله الحرب بين بني وائل وبين بني بكر وبين بني تغلب . ومن بني بكر ابن وائل بنو شيبان ومن مشهورهم مرة وابنه جساس قاتل كليب وطرفة ابن العبد الشاعر ومن بني بكر بنو حنيفة ومن مشهورهم مسيلة الكذاب وولد لمضر بن نزار ﴿ إلياس ﴾ وقيس عيلان وكثرت ذرية قيس هذا فمن ذريته قبائل هوازن ومن هوازن بنو سعد بن بكر الذين منهم (حليمة) مرضعة النبي (ص) ومن ذريته بنو كلاب وقبائل عقيل وبنو عامر وصعصة وخفاجة وبنو هلال وثقيف وبنو نخير وباهلة ومازن وخطمان وبنو عبس الذين منهم عنزة المشهور وقبائل سليم وبنو ذبيان وبنو فزارة وكان بين بني عبس وبني ذبيان حرب داحس التي ظلت أربعين عاما . ومن

بي ذبيان النابغة الذي ياتي الشاعر المشهور

وولد لايلاس بن مضر ﴿مدركة﴾ وطابخة ومن ذرية طابخة بنو

تيم والرباب وبنو ضبة وبنو منينة

وولد لمدركة بن الياس ﴿خزيمة﴾ وهذيل والى هذيل هذا تنسب

جميع قبائل الهذليين ومنهم أبو ذؤيب الهذلي الشاعر المشهور

وولد لخزيمة بن مدركة ﴿كنانة﴾ وأسد والهون وولد لكنانة ابن

﴿خزيمة﴾ النضر ﴿ولم يكن وعبد مناة وعمر ووعامر ومالك فن ماسكان

بنو ماسكان ومن بني عبد مناة بنو غفار ومن مشهورهم أبو ذر . وبنو

نكر . ومن بني بكر هؤلاء الدئل ومن مشهورهم أبو الاسود الدؤلي

و بنو ليث وبنو الحارثة وبنو مدلج وبنو ضمرة

وولد للنضر بن كنانة ﴿مالك﴾ ولم يعرف له ولد سواد وولد لمالك هذا

﴿فهر﴾ وفهر هذا هو الذي سمي قرشاً ولم يولد لمالك غير فهر وولد لفهر

﴿غالب﴾ ومحارب والحارث فن محارب بنو محارب ومن الحارث بنو الخالج

ومن مشهورهم أبو عبيدة بن الجراح وجميع ذراري فهر يقال لهم قرشيون

وولد لغالب بن فهر ﴿لؤي﴾ وتيم الادرم ومن تيم المذكور بنو

الادرم ومعني الادرم ناقص الذقن

وولد للؤي بن غالب ﴿كعب﴾ وسعد وخزيمة والحارث وعامر وأسامة.

ومن ذرية عامر بن كعب عمرو بن ود فارس العرب الذي قتله علي بن أبي طالب

وولد لكعب بن لؤي ﴿مرة﴾ وهصيص وعدي فن هصيص بنو

جمع ومن مشهورهم أمية بن خلف وأخو أبي بن خلف وكلاهما كانا عدوين

عظيمين للنبي (ص) ومن هصيص أيضا بنو سهم ومن عدني بنو عدي ومن

مشهورينهم عمر بن الخطاب وسعيد بن زيد

وولد لمرقة بن كعب ﴿كلاب﴾ وتيم ويقظة فمن تيم بنو تيم ومن مشهورينهم أبو بكر الصديق وطاحه ومن يقظة بنو مخزوم ومن مشهورينهم خالد بن الوليد وأبو جهل عمرو بن هشام

وولد لكلاب بن مرة ﴿قصي﴾ وزهرة قوم من ذرية زهرة سعد ابن أبي وقاص وآمنة أم النبي (ص) وعبد الرحمن بن عوف وقد كان قصي هذا عظيما في قريش وهو الذي ارتجع مفاتيح الكعبة من بني خزاعة وهو الذي أثل مجده وولد لقصي بن كلاب ﴿عبد مناف﴾ وعبد الدار وعبد العزى فمن بني عبد الدار بنو شيبه حجاب الكعبة ومن مشهورينهم النضر بن الحارث كان من أشد أعداء النبي (ص). ومن عبد العزى أيضا سعيد تناخديجة بنت خويلد التي روي سيرتها

وولد لعبد مناف بن قصي ﴿هاشم﴾ وعبد شمس والمطلب ونوفل فمن عبد شمس أمية ومنه بنو أمية ومنهم عثمان بن عفان ومعاوية بن أبي سفيان مؤسس الملك الأموي. ومن المطلب بن عبد مناف المطاليون ومن ذريتهم الإمام الشافعي ومن نوفل النوفليون

وولد لهاشم ﴿عبد المطلب﴾ ولم يعلم له ولد سواه. وولد لعبد المطلب ﴿عبد الله﴾ وحمزة والعباس جد الملوك العباسيين (١)

وولد لعبد الله بن عبد المطلب ﴿محمد﴾ النبي عليه الصلاة والسلام

(١) عبارته توهم أن هؤلاء جميع ولده وليس هذا بمراد ولكن من الغريب أن ينسب أباطال وهو ينسب المشهورين ومن أشهر بعد رسول الله «ص» من بني طاب وولده علي المرتضى وهو يدعى في الكاذا كرت سلالة نسب أحد ذريته من السبطين الظاهرين

الفصل الأول

مكة ومائة قريش الاجتماعية عند البعثة

نشأت خديجة في بلد شأنه عجيب، قصي عن العمران، وفي واد غير ذي زرع، لا تناسب فيه الامواه، ولا تكتنفه الحدائق، ولا تقوم للصناعات فيه دولة. ولا يجد مبتغي الزخارف لديه مجالا، ولكن أبدله الله جلالا معنويا، وكساه جلالا روحانيا، فلافئدة تهوي اليه، والمطايا تزجي له من كل فج عميق،

هذه البلدة المقصودة هي « مكة » المكرمة الشهيرة التي لا يحفل اسما وشهرتها أحد، هي أم البلاد العربية واقعة في القطعة المسماة بالحجاز من شبه جزيرة العرب، قائمة بيوتها في سفوح جبال محيطة بها لم نقف على مقدار عدد نفوسها في تلك الايام التي نشأت فيها خديجة ولكن عدد مقاتلتها لم يكن يتجاوز الالفين في الغالب فيمكننا أن نحزر أهلها اذ ذاك بنحو خمسة عشر ألفا كلهم أولاد أب واحد قد ورثوا باستعدادهم لا بنسبهم هذا المقام الكريم والبلد الشريف ممن كان قبلهم من القبائل. وذلك أن قصي بن كلاب استطاع أن يجمع جميع ذراري فهر بن مالك الى مكة ويزاحم بهم من كان فيها من القبائل فلم تلبث أن صارت لهم خاصة

وفي مكة هذه بيت مقدس قديم العهد يكاد يكون أول أمره

مجهولاً عند المشتغلين بالتاريخ اسمه بيت الله أو الكعبة . وكان جميع عرب الحجاز يعظمون هذا البيت أكثر من كل البيوت التي شرفوها ويحجون إليه ، ويتعارفون ويتعاطفون لديه

كانت هذه البلدة المشرفة تضم بين تلك الجبال المهيبة أمة صالحة الاستعداد للرقى متى أريت طريقته كما تضم الصدفه جوهرة لا يظهر بهاؤها ورواؤها حتى تعالج بعض المعالجة وتزال عنها القشور . أما من حيث الحضارة فلم تكن كما ينتظر ابن حضارة هذا العصر من البلدان واعم هي بيوت ساذجة مبنية بالحجارة والابن ومسقوفة بمجدوع النخل خالية من الزخرف

وهذا البلد الامين باق إلى يومنا هذا لم يزد على طول القرون الا تشريفا وتكريما ، ولم يتغير فيه إلا أشكال الابنية وازدياد التجارة والبيت المشرف لم يتغير وضعه ولا وضع الشعائر التي حوله وانما بنيت هناك زيادات وتحسينات اقتضتها الدواعي

ومكة معدودة اليوم من جملة بلاد الدولة العلية العثمانية بيد انها لم تحرم حتى الآن من أمير عربي يتصل نسبه بسيدتنا خديجة هذه ، ونفوذه فيها وفيما حولها نفوذ تام يستمد من السلطان العثماني ومن احترام العرب لهذه السلالة

ومن الاثار المشهورة الباقية في مكة بئر زمزم ويقولون ان قبيلة جرهم كانت دفنتها ثم احتفرها عبد المطلب بن هاشم جسد النبي (ﷺ) وكان ذلك من مفاخر عبد المطلب لانه لم يكن بمكة من ماء إلا في آبار بعيدة عن البيت المشرف فلما أخرج عبد المطلب زمزم في جوار البيت

انصرف الحاج اليها . ولحفر زمزم حديث طويل خلاصته تدل على شغف عبد المطلب بتسهيل الماء على الحجاج ، فاذا تأملنا في حرص القوم على مثل هذه العناية بالغرباء وابناء السبيل نعلم شيئا من روح تربية الهمم وترقية العواطف في ذلك المجتمع الذي نشأت فيه « خديجة »

وكان من جيد أمر أهلها في مجتمعهم ذلك أنهم اقتسموا النظر في الامور العمومية فيما بينهم فكأنهم كونوا حكومة جمهورية من غير رئيس عام وكان أمر هذه الجمهورية العربية الوضع سائراً على منتهى النظام ولكن لم يكن هذا النظام لسر في ترتيب هذه الجمهورية فانها لا يؤمل منها في حد ذاتها ان تثمر نظاما بالغا منتهى الجودة والقوة وانما ذلك أثر من آثار تربيتهم العمومية فلاخبار كل اداة على أن القوم بالجملة كانوا كأنهم مفطورون على التضامن التام فلذلك كان من مزايا ذلك الاجتماع الذي لا نعده له نظيراً أن كل فرد من أفراد تام الحرية لا يشعر بقهر حاكم ولا يخشى سطوة جبار وكل منهم في أمن من فوات الحقوق واعتداء الحدود . الجنايات قليلة ، وكرامة الناس محفوظة ، والآداب سليمة ، والحدود غير متجاوزة ، والحقوق مصونة ، وذرائع الفساد مسدودة ، وسلامة الفطر غالبية ، والمزايا التي بها كمال الانسانية راجحة .

فاذا أضفنا إلى كل ذلك احترام الغريب وتوقيده ايامه وتوقيه اذاهم نجد أن ذلك المجتمع لا يكاد يوجد نظيره ولكن مع كل هذا الجمال والحسن والصلاح في هذا المجتمع كان فيه عيوب إذا أزيلت يصبح أول مجتمع راق في الدنيا وخليقاً أن يفيض على جيرانه من بركات العقول التي أشربت بديع جماله ، واثرت إلى عظيم كماله ، ثم تآقت إلى تعريف العالم بما أكنت

تلك البقعة التي لم تكن شيئاً مذكوراً من العقول المنيرة والارواح العالية وقد وقع ذلك فان الذي منه تنشأ الاسباب واليه ترجع الامور قد أتاح لهذا البلد الجمهوري من ينظفه من تلك العيوب التي أشرنا اليها فكان بعد ذلك كما هو المنتظر منه أي تم ظهوره فصار مشرقاً لنور عظيم بلغ مشارق الارض ومغاربها فأخذ كل قوم منه بقدر استعدادهم

أما الجمهورية التي أشرنا إلى أنها كانت في هذا البلد فقد أقاموها على أساس يأمنون معه من الزلزال وذلك أنهم رأوا الشرف انتهى إلى عشرة رهط من عشرة بطون لاشتهارهم بأعمال مجيدة ، ثم أجمعوا أمرهم على أن يكون النظر في الامور العمومية من خصائص هذه البيوت العشرة وتراضوا على أن يكون لكل بيت من هذه العشرة وظيفة يختص بها تعد من مفاخره ، فهم بهذا الصنيع قد أخذوا بشيء من أصول حكم الاشراف ، وبذلك أعطوا الاعمال التي يمجدها الفرد أو الاسرة حقها من التكريم والتشريف ، ليزداد نشاط أربابها وحرص غيرهم على التشبه بهم وأخذوا أيضاً بشيء من أصول الحكم النبائي وهو أعظم الآيات على وجود التضامن الذي هو أحد الاركان التي تحفظ بها سعادة الامم

أما الشورى فقد وفروا منهم حظها ، وعظموها في أنفسهم حقها ، وبها كانوا يشرعون ما يشرعون من الاحكام والحدود ، ويفصلون ما يفصلون في بعض القضايا والحقوق

وقد ألغوا الرئاسة العامة من بينهم كأنهم عدوها لغوا إذا صدقوا في تضامنهم وصلحوا في مشاورهم وارانتهم الحق ، وقليلة الجدوى إذا مرض تضامنهم ووهى نظامهم . أو أنهم خشوا أن يكون حب الرئاسة إذا وجدت

مدعاة لكثرة تنازعهم وتنافسهم فلا يأمنون بعد ذلك كثرة الفشل والشقاق وسقوط الهيبة من نفوس الغرباء ووقوع الفتور في نفوس الاقربين .
أو أنهم أنفقوا أن يملكوا عليهم أحداً لأنهم كلهم يحملون بين أضالهم نفوس الملوك ، وجمهوريتهم هذه لم يكن لها رئيس عام ولكن كانوا يقيمون واحداً في وظيفة رئيس عام مؤقتاً

أهل هذا المجتمع اللطيف لم يكونوا أولي شنف بالمحاربات فعلاقتهم الخارجية مع جيرانهم من القبائل وأهل القرى والبلاد كانت حسنة ولكن هذا لم يقعدهم عن أن يكون استعدادهم تاماً لما ينزل بهم . فإن نزل بهم ما يطيقونه كشفوا الأثم عن قوتهم وبرزوا من خير تريث . وإن نزل بهم مالا قبل لهم به تريثوا وعمدوا إلى الانادة ، وفتقوا من الحيلة أبوابة يخرجون منها إلى السعة من الضيق ، ومن فل الجيوش بالحسام إلى فلها بالبيان ، وقد أعطوا من هذا حظاً عظيماً .

ومن أشهر حوادثهم الخارجية التي ضاقوا بها ذردا هجوم القناد الحبشي (أبرهة) الذي كان غلب على بعض بلاد اليمن فقد دهمهم بجيش عظيم لم يروا لانفسهم طاقة به فقابله عبد المطاب جد النبي ﷺ وكان يومئذ رئيس قريش فأحسن مقابلته ولطف ببعض الشيء من حديثه التي كان بها مسوقاً لهدم « بيت الله » على زعمه لاسباب فصلها رواة الاخبار ثم أصابته داهية سماوية فقفل بجيشه ثانياً عزمه لانه رأى في أهل هذا البلد مالم يكن يخطر له في بال

نعم رأى في مقدمه هذا على هؤلاء القوم عجباً من الامر وذلك أنه لما أتاهم أرسل اليهم رجلاً حميراً كان معه اسمه حنطرة وأوصاه أن

يسأل عن سيد أهل هذا البلد وشريفها فيبلغه أن الملك لا يريد الحرب وإنما جاء لهدم هذا البيت فلما دخل حناطة مكة سأل عن سيد قريش وشريفها فدلوه على عبد المطلب بن هاشم فجاءه وبلغه ما أمره به أبرهة فكان جواب عبد المطلب أننا لا نريد حربه ، قال حناطة إنه أوصاني بأنه يريد مواجعتك إن لم تريدوا الحرب فانطلق عبد المطلب مع حناطة إليه فلما رآه أبرهة رأى الوسامة والجلال فأعظمه وأكرمه وأخذ به إلى جانبه وقال المترجمان سله أن يقول ما يبدو له فلم يكن من عبد المطلب إلا أنه صرف لسانه عن الخوض في عزم القائد على هدم البيت وجداله فيه ، بل أظهر الاقتناع بضرورة المسألة وعدم معارضة القائد في أمر هذا المعبد وقال له إذا لم يكن لك غير هذا الأرب فرد علينا إبلنا . قال أبرهة للمترجمان قل له قد كنت أعجبتني حين رأيته ثم قد زهدت فيك حين كلمتني ، أتكلمني في الأموال وتترك بيتا هو دينك ودين آبائك ، فأجابه عبد المطلب إننا نحن أرباب المال وأما البيت فله رب هو سيمنعه . فقال له إنه ما كان ليمتنع مني ، فأجابه أنت وذاك ، ورد أبرهة الإبل على عبد المطلب وبقي مصراً على عزمه ، ورجع عبد المطلب على قريش فأمرهم أن يعصموا بالجلال ، ولا يأتوا أمراً حتى يروا ماذا يكون ، وقد أتى من لدن العناية الغيبية ما لم يكن في الحساب ، فإن أبرهة لما أصبح وتهاياً لدخول مكة برأه الفيل الذي كان يركبه وحرن وأتوا كل باب من أبواب الحيل ليقوم ويمشي تلقاء مكة فلم يبق ، ثم رأوا حجارة تسقط عليهم من أرجل صنف من الطير فتشام أبرهة وتذكر ما أنذره به ذلك الرجل الجليل السي الطاعة (عبد المطلب) من حماية هذا البيت بطريقة لا يبلغها عقله فخدمت

في صدره جذوة الحدة والتهور وخذل أمام هؤلاء القوم الذين حاربوه بالسلم، ورموا عتله بسهم نافذ من ينان عبد المطلب مع رمي الطير جيشه بحجارة من سجيل

وهذه أكبر حوادثهم الخارجية وأشهرها . وفي عام هذه الحادثة ولد النبي (ص) وقد سموه عام الفيل لما ذكرنا من قصته . ورجال هذه الحملة قد عرفوا بعندها باسم أصحاب الفيل وقد أشير الى مجمل هذه الحادثة في القرآن المجيد

الفصل الثاني

﴿ بيوتات قريش وخصائصها ﴾

أما بيوت شرفهم العشرة فهي :

هاشم ، وأممية ، ونوفل ، وعبد الدار ، وأسد ، وتيم ، ومخزوم ، وعدي ، وجهج ، وسهم

وأما الأمور التي كان توليها من خصائص هؤلاء فهي : السقاية ، والعمارة ، والعقاب ، والرفادة ، والحجابه ، والسدانة ، والندوة ، والمشورة ، والاشناق ، والقبة ، والاعنة ، والسفارة ، والايثار ، والاموال المحجرة ،

هذه الاسماء أكثرها اصطلاحية يحتاج الى تفسير يوافق العصر الذي نحن فيه حتى تفهم شكل ذلك المجتمع الذي سميناه جمهوريا على حسب اصطلاح عصرنا

فأما السقاية فقد تفهم من اللفظ نفسه أي سقاية الحجاج الذين كانوا

يأتون « بيت الله » من كل جانب ولا يخفى على أحد ان العناية بهؤلاء الغرباء وتوزيع المياه عليهم من أهم الامور العمومية في ذلك الظرف وكان بنو هاشم هم أهل هذه الوظيفة

واما العمارة فهي منع من يتكلم في « بيت الله » بكلام سفیه قبيح أو يرفع فيه صوته وكانت هذه الوظيفة أيضا في بني هاشم الذين منهم العباس صاحبها

واما العُقاب فهي راية قریش كان من شأنهم فيها انهم يحفظونها في بيت من البيوت العشرة فاذا وقعت حرب أخرجوها فان اتفتوا على أحد منهم اعطوه راية العقاب وان لم يجتمعوا على أحد رأسوا صاحبهم فقدموه وقد كانت هذه الوظيفة أي حفظ هذه الراية من خصائص بني أمية الذين منهم أبو سفيان صاحبها

واما الرفادة فمعناها الاسعاف وكانوا يجمعون من أنفسهم أموالا لرغد المنقطعين من الحجاج وكانت الرفادة في بني نوفل الذين منهم الحارث ابن عامر صاحبها

واما السدانة والحجابة فمعناها خدمة « بيت الله » وحفظ مفتاحه والظاهر من هذه الوظيفة انها دينية ولكن متولي هذه الوظيفة الدينية مشترك مع عشيرته بتدبير الشؤون الاجتماعية وهذا العمل الديني نفسه قد كان عند القوم من أهم الامور العمومية في مدينتهم وجمهوريتهم

وقد نستطيع ان نشبهها من بعض الوجوه بوظائف كبار رؤساء الدين في الامم المتقدمة اليوم ولا يخفى ان وظائفهم من متمات مدينتهم، ولمن يتولونها شأن يذكر عندهم. وقد كانت الحجابة والسدانة في بني عبد الدار

الذين منهم عثمان بن طلحة صاحبها
واما الندوة فمعناها ظاهر من اللفظ نفسه وكانت دار الندوة في بني
عبد الدار ايضاً

واما المشورة فيريدون بهارئاسة الشورى وليس يبعد عن الصواب
اذا شبهناها من بعض الوجوه برئاسة الوزراء أو رئاسة مجلس الاعيان وكانت
هذه الوظيفة من خصائص بني أسد وكان يتولاها منهم يزيد بن زمعة
ابن الاسود وكان من شأنهم في هذه الوظيفة أن رؤساء قريش كانوا لا
يجمعون على أمر حتى يمرضوه علي صاحب هذه الوظيفة فان أعجبه
وافقه عليه والا تخير وكانوا له أعوانا

واما الاشناق فهي الديات والمغارم فقد كانوا يساعدون من يستحق
المساعدة ممن حمل منزماً أودية وكان النبروس مع صاحب المغمم لجمع
المطلوب من خصائص بني تميم الذين منهم أبو بكر الصديق فكان أبو بكر
اذا نهض مع أحد صدقه قريش وأعانوا من نهض معه وان نهض غيره خذلوه
وأما القبّة فأشبه شيء بنظارة الحريية ولكن كانوا يعمدون إليها
وقت الحرب فقط وامل ذلك لسذاجة الحرب اذ ذاك أو لاستعدادهم
لها كل وقت اذا تأججت نيرانها، وقد كانوا يضربون قبّة فيجمعون اليها
ما يجهزون به الجيش وكان ذلك من خصائص بني مخزوم الذين منهم
خالد بن الوليد صاحبها

واما الاعنة فمعناها رئاسة الخيالة وكانت هذه الوظيفة للمخزومين
أيضاً وخالد صاحب هذه الوظيفة هو ذلك الفاتح العظيم القائد العام في
(٥ خديجة)

الاسلام لجيوش أبي بكر خليفة النبي عليه الصلاة والسلام وما أظن تاريخ
فن التعبئة اليوم يخلو من الاستثناس بذكر تلك التدابير الخزومية التي
كان لها شأن عظيم في الاسلام كما هو شأنها في الجاهلية (أو الجمهورية)
وأما السفارة فلمراد بها ظاهر وقد كانوا يحتاجون الى السفارة في
الحروب أي في أوائلها أو بعد شوب نارها وتعاطم أوزارها ويحتاجون
اليها اذا نافرهم حي للمفاخرة . وقد كانت هذه الوظيفة من خصائص
بني عدي الذين منهم عمر بن الخطاب صاحبها وناهيك بذلك الخليفة الثاني
الشهير بكل منقبة صالحة إذا كان سفير قوم

أما الايثار فهي الازلام والقداح كانوا يضربون بها اذا أرادوا
أمرا وكان هذا من خرافاتهم وعيوبهم ويحق لنا أن نبالغ في استهجان
هذه الخرافة التي كانوا عليها الا أن يكون لهم شيء من النظر من وراء
الخرافة كما هو الحال في كثير من الامور الباطلة التي تروج في امم بسماح
من العقلاء أو بترويج منهم لها وقد كانت هذه الوظيفة لبني جح الذين
منهم صفوان بن أمية صاحبها

وأما الاموال المحجرة فهي الاموال التي سموها لآلهتهم ويصح أن
تسمى هذه الاموال أم الاوقاف الخيرية اي ان بينهما تشابها . وقد
كانت هذه الوظيفة أي تولي النظر في الاموال المحجرة من خصائص بني
سهم الذين منهم الحارث بن قيس صاحبها

هذا ما كان من حيث ترتيب التضامن واقتسام الاعمال المهمة .
واما الامور الجزئية التي كان الافراد يختلفون فيها ففصل فيها كبار أسرهم
وعشائهم في الغالب على طريقة التحكيم ولم يكن للقوم من شريعة مكتوبة

وانما كانوا يقضون في الامر كما يبدو لهم الصواب فيه ويقسبون
لامور باشباهها

وهنا يخطر في بال القاريء أن يسأل عن الضعيف الذي لا يأوي الى
ركن شديد من رهطه كيف كان حاله اذا أهين أو ظلم في ذلك المجتمع
الذي لا شريعة فيه مكتوبة ولا قوة عمومية من شأنها وخصائصها دفع
القوي عن الضعيف ؟ وقد بحثنا في هذه المسألة المهمة فوجدنا القوم لم
يسوها ولم يهملوا شأنها وذلك انهم قرروا في مؤتمر لهم حماية الضعيف
والذود عنه ، وكان من حديث ذلك المؤتمر ان قبائل من قريش اجتمعت
في دار عبدالله بن جدعان الشهير وتعاهدوا وتعاقدوا على أن لا يجردوا في
مكة مظلوما من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس الا قاموا معه
وكانوا على من ظلمه حتى ترد عليه مظلمته ، فسمت قريش ذلك حلف
الفضول وكانت الارهاط المتعاقدة بني هاشم وبني المطلب وبني أسد بن
عبد العزى وبني زهرة بن كلاب وبني تيم بن مرة

نعم كان من النقص في نظامهم ذلك أن لا تكون حماية الضعيف
من خصائص الجمهور ولكن يظهر انهم كانوا يكتفون في الضعيف بأن
يجرده واحد من بيوت العزة والقوة فانه يصير مثل مجيره في نظر الجمهور
فلا يجسر أحد أن يبغي عليه

ويمكننا أن نستخلص من كل ما تقدم ان القوم كان لهم شبه قانون اساسي
الا انه غير مكتوب ولم يكن لهم قوانين مدنية أو جنائية قط . والامر
في الامور المدنية سهل في المجتمعات البسيطة الصغيرة فكل انسان يستطيع
فيها أن يحتفظ بحقوقه أو يستعين عليها بالتحكيم وما أشبهه . وأما الحوادث

الجنائية فلا يجوز اهلها وتركها من غير ان يتولى الفصل فيها أناس مقيدون بقوة تنفيذية مخافة ان تكثر الجنايات ولكن تكافؤ القوى في العشائر والبطون المتساكنين في بلد واحد قد يكون مانعا من كثرة الجنايات واذا اضيف الى ذلك صلاح الاخلاق والتربية العمومية كان هذا نعم الظهير على تقليل العدوان وقد كان القوم يتواصون باجتنباب الظلم ولا سيما في البلد الامين ومن وصاياهم في ذلك قول إحدى نسايتهم توصي ابنا لها :

أُنيّ لا تظلم بمك	ة لا الصغير ولا الكبير
واحفظ محارمها بنيّ	ولا يغرنك الغرور
أُنيّ من يظلم بمك	ة يلقى أطراف الشرور
أُنيّ يضرب وجهه	ويلجئ بخديه السعير
أُنيّ قد جربتها	فوجدت ظالمها يبور
الله آمنها وما	بنيت بعرضتها قصور
والله آمن - طيرها	والعصم تأمن في مبير

وتواصيتهم بالنهي عن الظلم يعرفنا بتعرف فلسفة القوم التي كانت تحثهم على مثل هذا

الفصل الثالث

﴿ ديانة أهل مكة عند البعثة ﴾

ويظهر لنا انهم طرقوا كسائر الامم باب الضالة المنشودة وهي معرفة ماهي نفوسنا ومن أين مبدؤها والى أين منتهاها وماذا ينكبها وماذا يدسيتها نعم طرقوا هذا الباب ولكن لم يفتح لهم عن الطريق الموصل الى هذه

احتائق المكنونة بل كان نصيبهم كنصيب الاكثرين ظنوناً ورجماً بالغيب أدرك القوم ان للعالم خالقاً ومديراً هو الذي خلق السموات والارض وما فيها ، وهو الذي خلق السمع والابصار والافئدة ، وقالوا كما يقول سواهم انه تستحب الرغبة اليه والرهبة منه ولكن في هذه السبيل تاهوا فتركوا ههنا العقل والتفكر وقلدوا الامم واتخذوا من الحجارة أوثاناً وقالوا ان تعظيم هذه الاوثان يقرب الى الله لان هذه الاوثان تماثيل أو كتماثيل لانس صالحين محبوبين عند الله فتعظيمهم الى درجة العبادة يقرب الى الله لقد غلطوا في ظنهم ان الله يحب هذه الحجارة . وأخطأوا بزعمهم ان تنزيل العقول الى تعظيم هذا الجماد (بهذه الصورة) تعظيماً قلبياً يرضي الله تعالى . وحادوا عن الحق بتخليهم ان هؤلاء يشفعون لهم عند الله تعالى وقد كان الواجب ان لا يكون في قلوبهم حب وعبودة الا للحي القيوم ولم يكن جائزاً ان يشرکوا به الجماد

وكان لهم أغلاط أخرى كثيرة في ذات الله سبحانه وصفاته وأفعاله فقد زعم بعضهم ان الملائكة بناته ، وزعم بعضهم ان الجن شركاؤه في الملك ، وظنوا جميعهم ان ابن يبعث الله بشراً ليعلمهم ويركهم .

غلطوا في كل هذا وتسفلت فيه عقولهم ولكن اعتقادهم بأن للعالم صانعاً مديراً عظيماً هو رب الكل وانه يجب ان يتقرب اليه العبيد قدر قلق على ما فيه من النقص والبعد عن الطريق القويم قلوب كثير منهم وكأنه أعداها لقبول حق سيظهر نوره فيمحق خطيئاتهم الاعتقادية

والمشهور ان القوم لم يكونوا يقولون بالمعاد والجزاء الا خروياً وانكن الحقيقة أنهم كانوا في ريب وشك أي لم يكونوا جازمين بشيء في هذا

الباب، وكان أناس منهم تذهب بهم عقولهم الى وجوب المعاد والجزاء الاخروي، ولكن عدم اعتقادهم بالجزاء الاخروي لم يكن مانعا من ان تكون قلوبهم منجذبة الى الاخلاق والاعمال الطيبة التي تحتل على مثلها الديانات من البر والاحسان والعدل والصدق والكرم وحماية الضعيف وترك العدوان والابتعاد عن الخيانة والبغي وما أشبه هذه المذائق، وعقولهم انما طرأ عليها التسفل الى تعظيم الجماد لان الوثنية هي الغالبة في عصرهم ولا يبعد عن الصواب من يقول ان الوثنية هي الغالبة على ضباع البشر كلهم الا قليلا

فاذا صرنا نظراً عن تلوث عقولهم بنزغات الوثنية لانجذ من بعدها هذه العقول مظلمة وهي التي أضاعت لهم فعر فوا بها الاخلاق الصالحة والفسادة ولم يكن يعوزهم الا أن يقوم فيهم مرشد يهديهم لاني هي أقوم من طرائق الاعتقاد بالله وصفاته وانتقرب اليه بتوجيه الوجه واسلام القلب اليه، ولولا ان للقوم عقولا صافية لما رجي لحيي المرشد من فائدة لانه لا يظهر نور الارشاد الا في اللوح النقي، ولكن الرجاء بالقوم في محله فانه لما جاء المرشد لقي أراضى في منتهى الاستعداد لما أراد أن يلقى البذار والى جانبها أراض أخرى فيها من أعشاب التمسك بالقديم ما يحتاج إلى زمن في معالجة ازالتة وقليل من الاراضى كانت سبخة ليس في الامكان أن ينتج فيها البذار

لا يهولئك من القوم سقم عقولهم فيما كانوا يعتقدون فان البشر كلهم الا قليلا كانوا ولا يزالون يعتقدون أمثال معتقدات القوم فوا أسفاه ان هذا العيب عام وراسخ في البشر ومن أصعب الاشياء استئصال

جذوره ولا ندري السر في هذا. ولكن انظر الى هذه الجماعة القليلة كيف أقامت لها شأنًا رفيعا في العرب كلهم اذ غلبتهم على التوطن في جوار البيت المشرف وأحسنّت المنام في هذا الجوار الشريف فنامت بحقوق حجاجه من سقاتهم ورفادتهم. وقامت بحقوق المستضعفين فيه من حمايتهم وتأمينهم، وقامت بسنن التضامن والتعاون والتواصي بالمعدل والاحسان حتي رضي العرب بتقديمهم عليهم اذا تقدموا واياهم لا. ر عظيم وشرف جسيم، على انهم ليسوا في العرب أكثر عدداً، ولا أقوى ناصراً. لا جرم قد خصهم الله بأفراد كانوا في نقاء القلوب آية. وبلغوا في صفاء العقول الغاية. والامم والشعوب تحيا بأفراد وتموت بأفراد

واذا، سخر الاله سعيداً لانس فانهم سعداء

ومما هو جدير بالذكر في هذا الصدد حريتهم التي كانوا عليها فانهم لما خلصوا من تملك أحد عليهم خلصوا من شرور كثيرة تتبع التملك فكانت معاشراتهم ساذجة خالية من عبارات الملق والخنوع. وكانت مكاسبهم لا نفسهم لا يشاركون فيها. مشارك ولا يعرفون المغارم المرتبة والاتاوات المضروبة

وهم في أمن من حيف القضاة لانهم يتحاكون يوم يشاءون الى من يرضونه من كبرائهم ولا قانون لهم في المسائل الجزئية ترتعد من أحكامه فرائضهم وانما يخشون بأس بعضهم فيرتدعون عن الشر الذي يثار له العموم أو يثار له من أصابهم خاصة

وكان جائزاً لاحدهم ان يتدين كما يريد بشرط ان لا يعيب دينهم

الذي كانوا عليه ولا يدعو الى ابطاله، وقد كان لبعضهم فلسفة في النشور والجزاء الاخروي وللبعضهم انصراف عن عبادة الاوثان وبعضهم ميل الى تقليد أهل الكتاب فلم يكونوا يحاسبون أحداً على مثل هذا

ولم يكن لديهم نوع من المبايعات حراما بل يبيعون ويشتررون كما يشاءون وكل منهم عارف بمصاحته ولهم همة في التجارة والرحلة فيها الى الشام وغيرها في الصيف والشتاء

أما أهل الصنعة فيهم فلم يكن لهم من قيمة والغالب ان يكون الصنائع غرباء

ولهم ازاء حسنة الحرية سيئة كبيرة وهى امتهان الرقيق واحتقاره وتكليفه الشاق من الامور ولم يكن بعضهم يأنف من إكراه امائه على البغاء ليأخذ ما يعطين في سبيله

وأما نساؤهم الحرائر فلم يكن جائزاً لهن الزنا ولا سيما اذا كان لهن بعولة، بيد أنه لم ينقل لنا انهم رتبوا على الزواني عقاباً بل كان عقابهن الى رأي أهلهن اذا شاءوا

وكان لنسائهم كثير من الحقوق ولهن ان يواجهن الرجال ويبرزن أمامهم حاسرات ويمكن ان يقال بالاجمال ان حرية الرجال والنساء كانت تامة ولذلك نعجب من قوم هذا شأنهم اذا رأيناهم لم يرثوا لخال الرقيق ولم يذكروا انه يستحق الرحمة لانه مسلوب أفضل كساء كساهموه ربهم الاعلى، الذي خلق فسوى،

الفصل الرابع

﴿مقام الفساء في قوم خديجة﴾

تلك كانت أحوال قوم خديجة في نظام اجتماعهم ذلك ولم يكن مقام المرأة فيهم مقاماً مهيئاً بل كان لها لديهم مقام كريم وجل ماعرف عنهم من انحطاط مقام المرأة أنهم كانوا يكرهون البنات وأنهم كانوا يدفنونهن أى يدفنونهن في التراب وهن على الحياة (١٦ : ٥٨) وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم ٥٩ يتوارى من القوم من سوء لها بشر به ، أي مسكه على هون أم يدسه في التراب الا ساء ما يحكمون *

هذا ماعرف عنهم ومن أخذ هذا الامر على ظاهره واطلاقه يستخف بهؤلاء القوم لان انحطاط قيمة المرأة ومقامها عندهم دليل على انحطاطهم ولكن أخذ الامر على ظاهره واطلاقه ليس من شأن الذين يحبون معرفة الحقائق

ان كل بلد فيها الفقراء وذوو اليسار، وفيها الحمقى واولو الالباب، وفيها القساة وأهل المرحمة . فليس من العقل ولا العدل ان يجعل عمل بعض الحمقى او القساة او الفقراء في بلد مثالا ومرآة لاعمال مجموع أهل البلد كان في مكة فقراء وحمقى وقساة كما هو الحال في سائر البلاد وكان

أناس قليلون من هذه الاصناف يأتون هذا العمل الفظيع نعي الواد (دفن البنات في الحياة في سن الطفولية) فلا ينبغي أن يقال بدون تقييد إن القوم الذين نشأت منهم سيدتنا هذه كانوا يثدون البنات . ان قوما نبغت فيهم مثل هذه السيدة لا يعقل ان يكونوا قتلة بنات ، كلا انهم لم يكونوا يقتلون الاجساد ، ولم يكونوا يقتلون منهن العقول والارادات ، واما الذي نقل عنهم فهو عمل نكريكادون لا يذكرون من فقرائهم او حقاقم او قساتهم

ولم يكن الذين يثدون بناتهم يأتون هذا العمل الفظيع تغيظا من هذه النسب البريئة أو احتقارا لجنس المرأة كما يلوح لأول وهلة إلا كان يسوقهم الى ذلك فساد في الخيال وضعف عظيم في الطبيعة . إذا الخيال الفاسد ليزين المنكر حتى يظنه صاحبه من المعروف كما يشاهد كل واحد منا كثيرا

كان منهم فقراء يزين لهم خيالهم الفاسد ان فتاتهم اذا ظلت في ميدان الحياة ربما نالها ضيم من فقرهم وربما عجزوا عن ان يكرموا من نفقة . تساويهن بأترابهن ، من ذوى قرباهن او جوارهن ، فيرون مواراتهن في التراب ، خيرا لهن من بقائهن دون الاتراب ،

لا نكران للحق ان هذا الخيال باطل ولا سيما عند المؤمنين ولكن هذا الخيال الباطل لم يوح الى صاحبه ان الفتاة شجرة خبيثة يجب اجتثاثها قبل النمو ويستحسن حرمان الوجود من ثمراتها وانما زين له سوء عمله هذا من طريق اخرى هي كرامة فتاته

يتخيل ذلك المسكين ان فتانه ان عاشت تعيش مثله في غصص تذيب
القوادر ولو قد من الجلود، و كرب تسود الوجوه البيض وتبيض الشعور
السود، فيزين له خياله ان يحمي كريمته نلذة كبده من مثل هذه الحياة التي
بلاها فقلاها، وان يتقي بألم ساعة عند توديعها وتسليمها الى الابد آلام
سنين يراها فيها كثيرة النصب قليلة النصيب كما يتقي أحدهم بألم السكي
آلام سقم من من

وكان منهم حمقى توسوس لهم شياطين الخواطر بأن الفتاة ربما
وقعت في يد من لا يرعى له ولها حرمة. ولو قضي على كل البشر بمثل هذه
الوساوس لآذنت الدنيا بالانقضاء، ولكن الموجد لم يشأ إلا ان تكون
الدنيا على هذا النمط من الاستمرار فلذلك لم يوجد لهذه الوسوس سلطانا
على قلوب البشر الا قليلا ممن بلغنا شيء عنهم من هذا القبيل

ساء ما يزين لهؤلاء الفقراء والحمقى الذين كبر نصيبهم من القسوة مع
نصيبهم من الفقر والحمق، فلو علم المعدم ان اليسار ليس محتكراً في بيوت معينة
واشخاص مختصة وانما يتاح للعاملين المحسنين مع الظروف المناسبة، وان
قيمة كل امرئ ما يحسنه، وان ليس عليه الا ان يعمل بالمعروف عند
قومه ويصبر قليلا حتى يتاح له ما يقوم به شأنه، لما سهل عليه ان يقصف
بيديه غصناً منه أنبته الله ولا لذة أكبر من تربيته وتنميته

ولو علم الاحمق ان الفرار من توهم العدو نهاية الجبن وغاية الخذلان
ويشر أقصى درجات الخسران لرأى انه جدير بالبكاء على حظه من
ضعف النفس

وهيات أن يكون قوم «خديجة» على هذا النمط من ضعف النفوس

وهم المعروفون بالشجاعة والاقدام. وأي قوم تطيب لهم الحياة اذا كانوا لا يرون سلامة حرمهم الا بافنائها، وانى يجد الشخص الطمأنينة اذا كان دأبه الهرب. من غير ما طلب ؟

أما انهم كانوا يكرهون البنات اذا بشر أحدهم بها فلا يستطيع أحد انكاره لأن القرآن المجيد هو الذي سجل هذه الحقيقة التاريخية وقد سرى هذا الى نفوسهم من شدة احتياجهم الى البنين الذين سيكونون المدافعين في ذلك المجتمع القائم بنفسه قيام المجتمعات الكبيرة. وليس معناه ان البنات تظل طول دهرها مكرهة وان النساء لا قيمة لهن ولا قدر عند أولئك القوم. ما ذنب القوم اذا كان نفر من فقرائهم وحقاقم قد ضعفت نفوسهم فاستسلموا الى الاستراحة مما يلذ للكرام التعب فيه ؟ وما إجرامهم الى الانسانية من بعد ان يقوم أمجادهم بافتداء كثير من الفتيات اللاتي تصدى أبائهن لوأدهن من الفقر ؟

ان العرب كافة وقرىشا خاصة كانوا يعززون المرأة ولا يهينونها، وقد أعطوا النساء كل ما لهن من الحقوق في نظر العدل، ولم ينسوا ان المرأة كالرجل هي انسان يحمل دماغا فيه ادراك وأن لهذا الانسان المؤنث نفساً كنفس ذلك الانسان الذكر تغضب وترضى وتنعم وتشقى فأعطوا دماغها ونفسها حقيهما

وقد رووا لنا ان هنداً بنت عتبة وهي من قوم سيدتنا «خديجة» جاءها أبوها يشاورها في رجلين من قومها رغبا الزواج بها فقالت صفهما لي فقال « اما أحدهما فقي ثروة وسعة من العيش ان تابعتيه تابعتك، وان مات عنه حط اليك، تحكمين عليه في أهله وماله؛ واما الآخر فموسع عليه،

منظور اليه ، في الحسب الحسيب ، والرأي الاريب ، مدره أرومته ، وعن
عشيرته ، شديد الغيرة ، لا ينام على ضعة ، ولا يرفع عصاه عن أهله «(*)»
فقال يا أبت الاول سيد مضياح للحره فما عصت ان تلين بعد ابائها ،
وتضيع تحت جناحه اذا تابعها بعلمها فأثيرت ، وخافها أهلها فأمنت ، فساء
عند ذلك حالها ، وقبح عند ذلك دلالها ، فان جاءت بولد أحمت . وان
أنجبت فعن خطأ ما أنجبت ، فاطو ذكر هذا عني ولا تسمه علي بعد .
وأما الآخر فبعل الفتاة الخريده ، الحره العفيفة ، واني لا خلاق مثل هذا
لموافقة فزوجنيه « فزوجها الثاني وكان هو أبا سفيان بن حرب فولدت
منه معاوية مؤسس دولة بني امية الشهيرة وأحد نجباء العرب ودهاتهم
فبهكذا كان مقام المرأة في قوم سيدتنا « خديجة » لا يفتات أهلها
عليها في حقها وهكذا كان رأي ذوات الحجب والزكاة منهن

ولقد كان كثير من نساء العرب يشاركن في السياسة والامور
العمومية وناهيك أن الحرب التي ظلت مستعرة نحواً من اربعين سنة
بين بني ذبيان وبني عيس لم يتفكر في اطفاء نارها الا امرأة ولم تتمكن
من اطفائها الا بما لها من المكانة وحسن الرأي وذلك ان بيهسة بنت أوس
ابن حارثة بن لام الطائي لما زوجها ابو هانم الحارث بن نوف المري
وأراد ان يدخل عليها قالت اتفرغ للنساء والعرب يقتل بعضها بعضاً - تعني
بني عيس وبني ذبيان - فقال لها ماذا تقولين ؟ قالت « اخرج الى هؤلاء القوم
فأصلح بينهم ثم ارجع الي » فخرج وعرض الامر لخارجة بن سنان فاستحسن
ذلك وقاما كلاهما بهذا الامر فمشيا بالصلح ودفعاً للديار من أموالهم

وحسبك من اشتهر من العربيات في السياسة منهن اللاتي كن من شيعة
الامام علي ايام مناصبة معاوية له كسودة بنت عمار بن الاشر الهمدانية،
وبكارة الهلالية ، والزرقاء بنت عدي بن قيس الهمدانية ، وام سنان
بنت جشمة بن خرشة المذحجية، وعكرشة بنت الاطرش بن رواحة، ودارمية
الحجونية ، وام الخير بنت الحريش بنت سراقه البارقى . واروى بنت
الحارث بن عبد المطلب الهاشمية .

وفدت سودة على معاوية بعد موت علي فاستأذنت عليه فأذن لها فلما
دخلت عليه سلمت سودة فقال لها كيف انت يا ابنة الاشر ؟ قالت بخير
يا امير المؤمنين . قال لها انت القائلة لأخيك :

شمر كفعل أهلك يا ابن عمار يوم الطعام وملتي الاقران
وانصر علياً والحسين ورهطه واقصد لهند وابنها بهوان
ان الامام أخا النبي محمد (١)
فقد الجيوش وسر أمام لوائه علّم الهدى ومنارة الايمان
قالت يا امير المؤمنين « مات الرأس ، وبتر الذنب ، فدع عنك تذكّار
ما قد نسي » فقال « هيهات ليس مثل مقام أخيك ينسى » قالت « صدقت
والله يا امير المؤمنين ما كان أخى خفي المقام ، ذليل المكان ، ولكن
كما قالت الخنساء :

وان صخرّاً لتأتهم الهداة به كأنه علم في رأسه نار
وبالله أسألك يا امير المؤمنين اعنّائي مما استعفيت به » قال قد فعلت
هقولي حاجتك : فقالت يا امير المؤمنين « انك للناس سيد ، ولأمرؤهم

مقلد ، والله سائلك عما افترض عليك من حقنا ، ولا تزال تقدم علينا من ينهض بعزك ، ويبسط بسطائك ، فيحصدنا حصاد السنبل ، ويدوسنا دياس البقر ، ويسومنا الخسيصة ، ويسألنا الجليلة ، هذا ابن اوطاة قدم بلادي ، وقتل رجالي ، وأخذ مالي ، ولو لا الطاعة لكان فينا عز ومنعة ، فأما عزله فشكرناك ، وأما لا فعرفناك » فقال معاوية « اياي تهدين بقومك ؟ والله لقد هممت ان أردك اليه على قتب أشرس فينفذ حكمه فيك » فسكتت ثم قالت :

صلى الاله على روح تضمنه قبر فأصبح فيه العدل مدفونا

قد حالف الحق لا ينبغي به تمنا فصار بالحق والايمان مقرونا

قال : ومن ذلك ؟ قالت : علي بن أبي طالب رحمه الله تعالى : قال ما أرى عليك منه أثراً قالت : بلى أتيت يوماً في رجل ولاء صدقاتنا فكان بيننا وبينه ما بين الفث والسمين فوجدته قائماً فانقتل من الصلاة ثم قال برأفة وتعطف ألك حاجة فأخبرته خبر الرجل فبكى ثم رفع يديه الى السماء فقال « اللهم اني لم آمرهم بظلم خلقك ، ولا ترك حقك » ثم أخرج من جيبه قطعة من جراب فكتب فيه (بسم الله الرحمن الرحيم قد جاءكم موعظة من ربكم ، فافوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الارض ففسدين ، بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين ، وما أنا عليكم بحفيظ) اذا أتاك كتابي هذا فاحفظ بما في يديك حتى يأتي من يقبضه منك والسلام » قال معاوية اكتبوا لها بالانصاف لها والعدل عليها فقالت « ألي خاصة أم لقومي عامة ؟ فقال ما انت وغيرك ؟ قالت هي والله الفحشاء واللؤم ان كان عدلا شاملا وإلا

يسعني مايسع قوني . قال اكتبوا لها بحاجتها
ووفدت بكاره الهلالية أيضا على معاوية بعد موت علي فدخلت عليه
وكان بحضرته عمرو بن العاص ومروان وسعيد بن العاص فجعلوا يذكرونه
بأقوالها التي قالتها في مشايعة علي ومعاداة معاوية فقالت أنا والله قائلة
ماقالوا وما خفي عنك مني أكثر : فضحك وقال ليس يمنعنا ذلك من برك
وكتب معاوية الى عامله بالكوفة ان يوفد اليه الزرقاء ابنة عدي بن
قيس الهمدانية مع ثقة من ذوي محارمها وعدة من فرسان قومها وان
يوسع لها في النفقة فلما وفدت على معاوية قال مرحبا قدمت خير مقدم
قدمه وافد كيف حالك ؟ فقالت بخير ياأمير المؤمنين ثم قال لها ألت
الراكبة الجمل الاحمر والواقفة بين الصفيين تحضين على القتال وتوقدين
الحرب فما حملك على ذلك ؟ قالت ياأمير المؤمنين مات الرأس وبتر الذنب ،
ولا يعود ماذهب ، والدهر ذو غير ، ومن تفكر أبصر ، والامر يحدث
بعده الامر . قال لها اتحفظين كلامك يومئذ ؟ قالت لا والله لا احفظه قال
لكني أحفظه وتلا عليها خطبة من خطبها التي هي في منتهى البلاغة ثم قال لها
والله يازرقاء لقد شركت تلياً في كل دم سفكه قالت احسن الله بشارتك
وأدام سلامتك ؛ فمثلك يبشر بخير ويسر جليسه . قال أو يسرك ذلك ؟
قالت نعم والله ، فقال والله لوفاؤكم له بعد موته ، أعجب دن حبيكم له في
حياته ، اذكري حاجتك فقالت ياأمير المؤمنين آليت على نفسي ان لا
أسأل أميراً أعنت عليه أبداً . ومثلك من أعطى من غير مسألة . وجاد عن
غير طلبه . قال صدقت وأمر لها وللذين جاؤا معها بجوائز
ووفدت عليه أيضا أم سنان بنت جشمة وعكرشة بنت الاطرش ،

ولما حج سأل عن دارمية الحجونية فخبرني بها اليه فقال لها بعثت اليك
 لأسألك علام أحببت عليا وابغضتني ، وواليتي وعاديتني ؛ فاستعفته فلم
 يفعل فقالت له أحببت عليا على عدله في الرعية ، وقسمه بالسوية ،
 وأبغضتك على قتال من هو أولى منك بالامر ، وطلبت ما ليس لك بالحق ،
 وواليت عليا على حبه المساكين ، وإعظامه لاهل الدين ، وعاديتني على سنكك
 الدماء ، وجورك في القضاء ، وحكمك بالهوى . ثم قال لها : يا هذه هل رأيت عليا ؛
 قالت إي والله قال فكيف رأيته ؛ قالت رأيته والله لم يفتنه الملك الذي فتنك ،
 ولم تشغله النعمة التي شغلتك . قال فهل سمعت كلامه ؛ قالت نعم والله فكان
 يجلو القلوب من العمى كما يجلو الزيت صدا الطست . قال صدقت فهل لك
 من حاجة ؛ قالت نعم تعطيني مائة ناقة حمراء ، قال ماذا تصنعين بها ؛ قالت
 أغزو بألبانها الصغار ، وأستحيي بها الكبار ، واكتسب بها المكارم ، وأصلح
 بها بين العشائر . قال فان أعطيتك ذلك فهل أحل عندك محل علي بن أبي
 طالب ؛ قالت سبحان الله أو دونه ، فقال أما والله لو كان علي حيا ما
 أعطاك منها شيئا قالت لا والله ولا وبرة واحدة من مال المسلمين
 وكذلك وفدت عليه أم الخير بنت حريش من الكوفة ووفدت
 عليه أروى بنت الحارث وجرى لهما معه حديث من مثل ما تقدم
 فكذلك كان مقام المرأة العربية ، من أخوات سيدتنا القرشية ، وهكذا
 كان حظهن من الفصاحة والحصافة ، ومبلغهن من المشاركة في الامور
 العمومية والاخذ بالاسباب ، والمشايعة لبعض الاحزاب ، وما أتينا الا
 باليسير توطئة لمعرفة مقام السيدة خديجة في قومها

الفصل الخامس

مقام خديجة عند قومها

ما أكرم هذا الملة م : وأي بليغ لا تأخذه الهيبة اذا دعي لتصور هذه المنزلة ؛
 سيدة بطاعتها الفخامة والشرف يتجليان ، والجمال والكمال يتألقان ،
 ومزايا كالزهر نفحاً وطيباً وكزهر السماء بهاءً ونوراً
 من شرف حسب : الى كرم محمد ، الى سؤدد قبيل ، الى عز عشيرة ،
 الى جمال ذات ، الى كمال صفات ، الى فضل حجب ، الى طهارة نفس ، ذلك
 ما كانت تزين به سيدتنا « خديجة » وذلك ما كانت تحمل به بين قومها في
 المسكنة العالية والمقام الكريم

هذه المزايا ليست بالبدع من الاشياء ، ولا نبؤها بغريب من الانباء ،
 بل هي معهودة في كثير من النسوة ، ومع ذلك لم يكن لاسمين نصيب
 بغير الحمل ، قد طويت أعلامهن ، ولم ينشر ذكركهن ، ولم يسم في
 أقوامهن مقامهن ، فكيف تسامى اسم « خديجة » وعلت منزلتها ؛
 انما كان لخديجة ذلك الشرف بشيء آخر غير مزاياها . ذلك الشيء
 هو ارتقاء مدارك قومها وسلامة أذواقهم وحسن انتظام مجتمعاتهم . وليس
 بكاف لتعالي امريء أن يكون كاملاً بل لابد مع ذلك من إحاطة قومه
 علماً بفضائله ووجود ميل فيهم للفضائل والكمال ، ومن المشهور أن الحجارة

الكرامة عند من لا يعرف منزلتها لا قيمة لها وهي عند عارفها فوق القيم
عالحق ان ارتفاع من يستحق الرفعة في قوم ليس دليلا على فضله وسعادة
جده وحده بل هو دليل ايضا على فضل اولئك القوم وسعادة جدهم،
فقد ربح قوم كان للافضل منزلة كريمة لديهم، وخسر قوم لا يعلمون بينهم
الا من استعان بجيش من الحيل والخداع، وحواش من النقائص المتغلبة
على الطباع،

واذا كنا معجبين بالسيدة «خديجة» لوفرة مزاياها الشريفة فنحن
بقومها الذين شرفوا هذه المزايا أشد إعجابا. وليست «خديجة» وحدها
هي التي نالت مقاماً كريماً في قريش بل كثير من فضليات نسائهم نلن المقام
الكريم فيهم، وكان لكثير منهن آثار مشكورة في مساعدة الاسلام الذي
نقل العرب وغيرهم الى أعلا مما كانوا فيه، ولم يستطعن ذلك الا بالهن من
القدر الذي يليق بانسان ذي رأي ممدود، وثقل مذكور، ونفس مشابهة
وحسبك من هذا ان ذلك الرجل العظيم عمر بن الخطاب أبا العدل
وأبا الفتوح واما السياسة والادارة لم يكن اسلامه الا بمحاورة سيدة من
أولئك السيدات القرشيات هي اخته فاطمة زوجة ابن عمه سعيد بن
زيد بن عمرو بن نفيل.

نحن نعلم أن أكثر الناس يعمرون بالمزية يعمدون أمثالها فلا يفتقون اليها
ما لم تكن رائحة وفوق ما اعتادوا وهذا عندنا ضار لان فما يعمدونه ايضا
ما يستحق الا لتفات اليه، وينري بالانتفاع منه ان كان مفيداً، والمتغافل
عن الانسان المفيد اذالم يكن فوق المادة يوصل الى الحرمان البتة من ذلك
الرائع المنشود، والسامي الذي هو فوق المجهود.

ولا يشكّن القاريء في أن كثيراً من الأشياء التي صرفتنا الالفة عن إجلال شأنها هي في جلالة الشأن عند الامعان فوق ما نتصور. وفي كثير مما لا نتفكر فيه منها ما تخر الافكار صاغرة أمام زاخر فوائده وباهر أسرارده، فلذلك أحيينا أن نمر بقارئنا مرة في تفصيل جملة تلك المزايا التي شرفها قوم «خديجة» حتى كانت بها كريمة المقام فيهم لأنه ربما اختلج في صدره التعجب من إكبارنا شأن مزايا معهودة في كثيرين وقد يكون قارئونا من حزب الاكثرين الذين لا يبالون بالمعهودات، ولا يطرئون بغير الغرائب

نعم، نعم نحن لم نظرف بما فوق المعهود، ولم نهذ ما وراء المشهود، ولا عدنا بمبتدعات التصور، ولا لذنا بغرائب الحوادث، وشواذ المصادفة، وخوارق العادة، ولم نمت الى افئدة القراء الا بمعروف له أمثال، ومألوف لا تضيق بتصديقه الافكار، ولكن الامر عندنا في هذه المعهودات على ما قلنا. واذا بننا اليها بنظر الامعان غير وسنانة عين بصيرتنا النينا فيها عند سأم النفس من لذة الحس، أعظم ما نتوق اليه من لذة التصور وفائدة الادراك

واذا كانت الحياة واحدة كان جديراً بنا أن نقف متذكرين هذه الوحدة ابداً أمام كثرة اختلاف المظاهر وشدة احتجاب الاسرار، ولم يكن حسناً بنا أن ننسى أحاسن ما تلده لنا هذه الام من الصور التي لا تحصى انما بتذكرنا من سادوا وشادوا، وبتذكرنا من صلحوا وأصلحوا، وبتذكرنا من اوجدوا وابتدعوا - نتذكر تاريخ امنا الحياة وترتاح نفوسنا

بأستجلاء أحسن صورها ، وتتوارد عليها اللذة باشتياقها الى نصيب من ثروة تلك الام التي جادت بمقادير منها عظيمة على اخوتنا أصحاب تلك المظاهر ولا يسي تلك الصور ، ولم لا نتوق الى حديث ذلك التراث وهو يملأ كنوزاً ان عجزت أفكارنا أن تحيط بكنهه جواهره خيراً فهي لا تعجز ان تأتينا بلذة من التأمل في بديع كيائها والامل ببلوغ ما تميل اليه النفس منها

الفصل السادس

فضائل (خديجة) والفضائل عند قومها

تبارك واهب الحياة ، فقد أمدع لنا في «خديجة» المثال الاسنى منها ، وأطلع لنا في شخصها زواهر الانسانية الفضلى ، وبنور هذه الزواهر رأينا مدارك قريش في الافق الاعلى ، وتربيتهم الادبية والعقلية في المنزلة العليا نحن معشر بني الحياة متفاوتون كثيراً في قوى النفوس وأكثرنا في الحقيقة مغبون الحظ منقوص النصيب من القوى التي تكون بها الحياة هنيئة شريفة مسعدة لصاحبها وغيره ، وقليل منا من رزقوا فضلاً من هذه القوى النافعة الآتية بالغبطة والحبور . ولدى التأمل نجد استعداد فطرة الشخص هو الاساس في حسن الحظ من هذه القوى النافعة ، ثم للترتبة دخل كبير ، فاذا اجتمع في الشخص استعداد حسن وترتبة حسنة كان حظه عظيماً من

فضائل النفس وقد اجتمع في « خديجة » فرأينا في سيرتها ذلك المثال السيء والكمال السمي

عرفنا حسن استعدادها ، لان التربية وحدها لا تفعل شيئاً في جوهر النفس اذا كان غير صالح لفعالها ، كما لا يصلح الماء ، لان تطبيع فيه ما نشاء . وعرفنا حسن تربيتها لان الاستعداد وحده لا يسير بصاحبه الى المرغوب في المجتمع . ومن حسن استعداد هذه السيدة وحسن تربيتها عرفنا شيئاً آخر جديراً بالتنويه وقلماً رأينا من نوده به او التفت اليه ، فلذلك دينا به نحن كثيراً في صدد هذه السيرة وهو ارتقاء قوم « خديجة » ارتقاء عظاماً فان التربية الشخصية مقتبسة في الغالب من التربية العمومية . والمجتمع غالباً اشبه بالمرآة يرينا من الاشياء مقبولا ومردوداً ومسكوتاً عنه . وتشتهر المقبولات حتى يطلق عليها اسم المعروف ، والمردودات حتى يطلق عليها اسم المنكر ، ويضطر الناس الى تقرير تربية عمومية هي ان لا يخالف المعروف ولا يوافق المنكر ، ويبقى للناس سبغ في المسكوت عنه من الاشياء حتى يرى كل منهم رأيه فيها ، فهذا يستحسن شيئاً حتى يوجهه على نفسه ، وذلك يستقبح شيئاً حتى يحرمه عليها . وأعقل الناس في هذه الاشياء المسكوت عنها من جعل المعروف والمنكر معياراً لها فكل ما قرب من المعروف كان حسناً ويكون وجوبه على حسب درجة قربه من المعروف ، وكل ما قرب من المنكر كان مستردلاً ويكون حظه على حسب درجة قربه من المنكر . والاصل في المنكر هو الاذى والعدوان ، وعليه قيس الاصل في المعروف قياس الضد فالاصل فيه العدل والاحسان

فعلى هذين الاصلين تقوم دعامة النظريات في التربية وعليهما تشاد الاعمال فيها وأي باحث لا تأخذ ذهيبية اذا اطلع على ما كان لقوم «خديجة» من التعمق في دقائق هذا الفن من حيث النظر، وعلى بدائع النتائج فيه من حيث العمل، أي والله ان هؤلاء القوم النازلين في ذلك البلد الصغير البعيد، واخوانهم الآخرين الضارين في تلك الفيافي، يدهش المطالع مايرادلهم من الباع الضويل في فن التربية على مقتضى مجتمعهم ذاك. فتراهم مثلاً لما كانت السباحة ضرورية ولا سيما لذلك الاجتماع جعلوها في المقام الاول ولم يألوا بطبعها في النفوس حتى نبغ فيهم أجواد بانوا بهمتهم في الجود الكواكب، وازينت الارض بمناقب همهم، واينار اخيهم الانسان على انفسهم، كما فعل كعب بن مامة الذي أثر رفيقه بمائه ومات هو عطشاً

ولما كانت الشجاعة ضربة لازب لكل شخص وكل جماعة في كل زمان وكل مكان، تجدهم جعلوها شعار المحامد وتاج المناقب وسير وافيا ضربوه من الامثال قولهم «الشجاع موقى، والجبان ملقى» وكانوا يتماذحون بالموت قتلا ويتهاجون بالموت علي الفراش ولما بلغ عبدالله بن الزبير — وهو ابن أخي خديجة — قتل أخيه مصعب خطب فقال «ان يقتل فقد قتل أبود وأخوه وعمه، اننا لا نموت حتفا ولكن قطعاً بأطراف الرماح، وموتاً تحت ظلال السيوف، وان يقتل المصعب فاز في آل الزبير خلفاً منه» ذلك لانهم كانوا يكرهون الحياة اذا لم تشرف ويرون الحياة الرذيلة معرضة للعدم أكثر من الحياة الشريفة. ومثل هذا يقول علي بن أبي طالب «بقية السيف أخرى عدداً، وأطيب^(١) ولدا» وتقول الخنساء وهي احدي الشهيرات في العرب:

نهين النفوس وبذل النفوس يوم الكريهة أبقى لها
 لا يستنكرون احد اذا قيل له ان الشجاعة - وهي السجية التي لا ترقى
 الامم اذا خلقت منها - كانت في العرب من الاخلاق الفاشية التي لا يعتدون
 بأحد منهم ما لم تكن فيه ، وقد سهل على نفوسهم انطباع هذا الخلق فيها لان
 أكثر شيء كانوا يتناقلونه هو حديث الشجعان واقdamهم في الشدائد
 حتي فضلوا ، والجنباء واحجامهم فيها حتي رذلوا ، وهنالك من الشعر في
 الشجاعة والشجعان ما يفعل في النفوس فعل السحر فيستزلهما من الخوف
 علي الحياة والهرب بها الي الخوف علي الشرف حتي تهون النفوس في
 سبيله كقول عنتره وهو أحد مشهوري شجعانهم:

بكرت تخوفني الختوف كاني أصبحت عن غرض الختوف بمغل
 فأجبتها ان المنية منهل لا بد ان أسقى بكأس المنهل
 فاقني حيائك لا ابالك وادامي أني امرؤ سأموت ان لم أقتل
 وقديظان ظان ان شجاعة العرب وبأسهم لم يكن الا فيما بينهم ومثل هذا
 الظن من قلة الاطلاع علي جملة أخبارهم ، فنحن لا نريد ان ناتي بآية علي
 شجاعتهم مما فعل هؤلاء القوم بعد اسلامهم فان ذلك مشهور ولكن حسبنا
 ان ندل القاريء علي ما كان من بأس العرب يوم ذي قار اذ أراد كسرى
 أن يوقع سوءا بيني بكر بن وائل لسبب لا محل لتفصيله هنا فجهز عليهم
 جيشا كفيفا ليهلكهم به وبلغهم خبره فتجهزوا له واعانهم قبائل اخرى
 فتوافوا بواد اسمه ذو قار وكانت الهزيمة علي جيش كسرى حتي تبعهم
 العرب الي داخل البلاد الفارسية وهي وقعة مشهورة كثرت فيها الاشعار ،
 وظهر فيها ما للشجاعة من الفضل في كسب الفخار ، وحي الذمار ، واتقاء العار ،

وفي هذه الواقعة يقول الأعشى أعشى بني بكر :

وجند كسرى غداة الخنوص بهم منا غطاريف ترجو الموت وانصرفوا
لقوا مملأة شهباء يقدمها للموت لا عاجز منا ولا خرف
فرع نمته فروع غير ناقصة موفق حازم في أمره أنف
فيها فوارس محمود لقاؤهم مثل الأسنة لا ميل ولا كشف
لما رأونا كشفنا عن جماجمنا ليعلموا أننا بكر فينصرفوا
قالوا البقية والهندي يحصدهم ولا بقية إلا السيف فأنكشفوا
لو أن كل معد كان شاركنا في يوم ذي قار ما أخطأهم الشرف
لما أمالوا إلى الشباب أيديهم ملنا ببيض لمثل الهام تختطف
إذا عطفنا عليهم عطفة صبرت حتى تولت وكاد اليوم ينتصف
بطارق وبني ملك مراربة من الاعاجم في آذانها الشنف
من كل مرجانة في البحر أحرزها تيارها ووقاها طينها الصدف
كأنما الآل في حافات جمعهم والبيض برق بدا في عارض يكف
ما في الخدود صدود عن سيوفهم ولا عن الطعن في اللبات منحرف

وفي هذه الواقعة يقول العديل بن الفرج العدلي :

ما أوقد الناس من نار لمكرمة إلا اصطلينا وكنا موقدي النار
وما يعدون من يوم سمعت به للناس أفضل من يوم بذى قار
جئنا بأسلابهم والخيال عابسة لما استلبنا لكسرى كل أسوار

وفيها يقول شاعر آخر من بني عجل

إن كنت ساقية يوماً ذوي كرم فاسقي الفوارس من ذهل بن شيبانا

واسقي فوارس حاموا عن ذمارهم واعلي مفارقهم مسكا وريحانا
وهي واقعة شهيرة ظهرت فيها الشجاعة العربية أكل مظهر وكان
المنذر لهم بنية كسرى وعزمه لقيط الايادي إذ كتب الى بني شيبان
يخبرهم بذلك في شعر مشهور غاية في البلاغة والتحميس واستشارة
العزائم وفيه يقول :

قوموا جميعا على أمشاط أجلكم ثم انزعوا قد ينال إلا من من فزعا
وقلدوا أمركم لله دركم ربح الذراع بأمر الحرب مضطاعا
لا مترفا ان رخاء العيش ساعده ولا اذا عض مكروه به خشعا
ما زال يحلب هذا الدهر أشطره يكون متبعا طوراً ومتبعا
حتى استمر على شزر مريته مستحكم الرأي لافحما ولا ضردا^(١)
وليس يشغله مال يشمره عنكم ولا ولد ينبغي له الرفعا
فعلى مثل ما ذكرنا كان نصيب العرب عامة وقبيلة خديجة خاصة
من الشجاعة التي لا قوام للأثم بدونها وكانوا لا يعتدون بالجبان ولا
يعدونه شيئا مذكورا . ينبئك بذلك قول أحد شعرائهم .

خرجنا نريد مغارا لنا وفينا زياد أبو صمصمة
فسته رهط به خمسة وخمسة رهط به أربعة

حكمة العرب ومعارفها وأدبها

ثم لم يكن نصيب قوم « خديجة » في فقه النفس والحكمة والمعارف
بأقل من نصيبهم العظام في الشجاعة فقد كانوا يتناقلون المعارف ويتدارسونها

« ١ » المريرة طاقة الجبل والحبل الشديد القتل ، والشزر القتل عن اليسار
والمنى استحكم أمره وقويت شكيته والفحم الرجل الهرم والضرع الضعيف

من غير كتب وكان لهم الملم قليل بحركات الكواكب والانواء التي تتبعها. وهو يقتضي شيئاً من معرفة الحساب وكان لهم معرفة غير قليلة بالطب وحفظ الصحة سواء كان طب الانسان أو طب الحيوان. والطب يقتضي أيضاً نصيباً من علم الخواص التي اودعها الباري في المعدن والنبات والحيوان اما معرفتهم بالاخبار أي التاريخ فحدث عنها ولا حرج وكانوا يعبرون عن هذا العلم بعلم النسب فان علم النسب في الحقيقة ليس عبارة عن معرفة نسب الاشخاص والقبائل فان هذه معرفة بسيطة لا تستحق أن تسمى علماً وانما كان النسابون يعرفون أخبار أولئك الاشخاص وأخبار تلك القبائل وهذا هو التاريخ وربما كان السبب في اشتباه هذه المعرفة باسم علم الانساب أن عارفي الاخبار كان اليهم المرجع في معرفة الانساب التي من أهم فوائدها معرفة تفريع القبائل والحقاق الفروع بأصولها على شدة البعد بين الاصول وتلك الفروع أحياناً. وقد كان منهم اختصاصيون بهذا العلم يلقون منه على من يتخلقون حولهم. قال رؤبة بن العجاج قال لي النسابة البكري « يارؤبة لعلك من قوم ان سكت عنهم لم يسألوني وان حدثهم لم يفهموني » يعيب بذلك على الذين لا يرغبون في تلقي هذا العلم حق الرغبة قال رؤبة فتلت له : أي أرجو أن لا أكون كذلك. قال فما آفة العلم ونكرته وهجنته ؟ قلت : تخبرني قال : آفة العلم النسيان ، ونكرته الكذب ، وهجنته نشره عند غير أهله »

وأما الحكمة والآداب والبيان فقد بلغ فيها هذا الشعب العربي من الانصباب على حفظها ودراسة الكلام الجوامع فيها مبلغاً عظيماً ويمكنني أن أقول إنها من أشهر ما اشتهر عنهم .

وهمل يجد الباحث معنى من المعاني التي يخطر للنفس فيها الاستحسان أو الاستهجان إلا ويجد لهم الشافي الوافي من البيان في تصويره وإبرازه بأبداع حلة، ولا ينبئك ببعض ذلك شيء كالمأثور من كلهم الجوامع التي سارت مسير الأمثال، وكانت كالدرر الفرائد بين سائر الأقوال ولا نستطيع أن نأتي هنا بتلخيص من ذلك الكثير لكيلا نبعد بالقاريء عن سياق السيرة ولكننا نذكر خبراً واحداً يدل على مقدار عناية العرب بتذاكر الحكم والآداب، وصياغتها بأبداع البيان، ومقدار ما وسعت منها تلك الأفكار. ذكروا أن عمرو بن الظرب العدواني وحمزة بن رافع الدوسي اجتماعاً عند ملك من ملوك حمير فقال: تساءلنا حتى أسمع ما تقولان. فقال عمرو لحمزة أين تحب أن تكون أيديك؟ قال «عند ذي الرتبة العديم، وعند ذي الخلة الكريم، والمعسر العديم، والمستضعف الحليم» قال: من أحق الناس بالملك؟ قال «الفقير المحتال، والضعيف الصوال، والغني القوال» قال فمن أحق الناس بالمنع؟ قال الحريص الكاند، والمستמיד (١) الحاسد، والخلف الواجد، قال من أجدر الناس بالصنيعة؟ قال من إذا أعطي شكر، وإذا منع عذر، وإذا مظل صبر، وإذا قدم العهد ذكر. قال من أكرم الناس عشرة؟ قال من إذا قرب منح، وإذا ظلم صفح، وإن ضويق سمح. قال من ألام الناس؟ قال من إذا سأل خضع، وإذا سئل منع، وإذا ملك كنع، ظاهره جشع، وباطنه طبع (٢) قال فمن أجل الناس؟ قال من عفا إذا قدر، وأجل إذا انتصر، ولم تطعه نزة الظفر.

(١) المستמיד المستعطي (٢) كنع انكش وتقبض، والجشع الطمع والشره والطمع بفتحين الدنسي

قال فمن أحزم الناس ؛ قال من أخذ رقاب الاسود بيديه ، وجعل
العواقب نصب عينيه ، ونبذ التهيّب دبر أذنيه ، قال فمن أخرج الناس ؛ قال
من ركب الخطار ، وادّتسف العثار ، وأسرع في البدار ، قبل الاقتدار (١)
قال من أجود الناس ؛ قال من بذل المجهود ، ولم يأس على المفقود .
قال فمن أبلغ الناس ؛ قال من حلّى المعنى العزيز ، باللفظ الوجيز ، وطبق
المفصل قبل التحزير (٢) قال من ألعم الناس عيشا ؛ قال من تحلى بالعفاف ،
ورضى بالكفاف ، وتجاوز ما يخاف الى ما لا يخاف . قال فمن اشتى
الناس ؛ قال من حسد على النعم ، وسخط على القسم . واستشعر الندم ،
على ما أنتم ، قال من أغنى الناس ؛ قال من استشعر اليأس . وأظهر
التجمل للناس ، واستكثر قليل النعم ولم يسخط على القسم قال فمن
أحكم الناس ؛ قال من صمت فادّكر ، ونظر فاعتبر ، ووعظ فازدجر . قال
من أجهل الناس ؛ قال من رأى الخرق منما ، والتجاوز مغرما .

وما ذكرناه من جهة معارف التوم الذين نشأت منهم هذه السيدة
كاف في الدلالة على أنه كان من جملة ما يعنون به من التربية تثقيف ناشئتهم
بما عندهم من المعارف على الطريقة التي ألفوها وتعودوها في التعليم وهي
الطريقة الطبيعية الساذجة الخالية من الاصطلاحات والتعاريف والتفاصيل
التي يحتاج اليها نفر قليلون ويستغني عليها الآخرون . ولكل فرع أهله الذين
بهم استعداد لا لتقاطه بسهولة ، ولا يكلف البليد في شيء أن يكبد في تفهمه
مدرسته ، أو ينضي في حفظه ذاكرته ، أو في توسيعه مخيلته

(١) يريد بالبدار السباق إلى معالجة الخصم ، وذلك قبل الاقتدار خرق أي حماقة

(٢) تطبيق المفصل إصابته وإبانة العضو بضره . والتحزير مبالغة من الحر في

ثم قد كان مما عني به العقلاء من رهط خديجة التريية على العدل ولقد اساننا شيئاً عن ولعهم به وحرصهم على حماية المظلوم ووقاية المهضوم وكذلك ولعوا بتمداح العفاف وتشريف الانفاء والعفاف واجلال الطهارة واهلها وكان من أكرم القاهم وأجلها لقب الطاهر والطاهرة بقدحازت السدة خديجة هذا اللقب الشريف باستحقاق اذ كان يقال لها « الطاهرة » فاذا عرف المطالع الكريم أن لهؤلاء القوم حظاً كبيراً من هذه الاشياء التي هي أصول الفضائل نعى السباحة والشجاعة والحكمة والآداب والبيان والعدل والتعفف كان جديراً به أن لا ينظر الى صغر شأن ذلك المجتمع اذا قورن ببلاد الحضارة فان الفضل الانساني الممنوح من يد الفاطر المبدع لا يتوقف على زخرف البيوت وكثرة الدور في البلد الواحد بل يصل ذلك الفضل بارسال رباني من يده سبحانه الى الذرات الصغيرة التي في الادمغة ويختص به سبحانه أفراداً ممن عنوا بتوجيه العقول والقلوب الى تصفية النفس وتركيتها من النقااص وتحليتها بالفضائل ممن لم يجمعوا أكبرهمهم تجويد المأكل والملبس والمسكن والفراش. فاذا كثر من هؤلاء الافراد في أمة ظهرت وان حل الخفاء بهم، واستوفت وان بحس الوزن لهم، ولم يكن الافراد الذين تلقوا هدية الفضل الانساني من الاحسان الرباني قليلين في قوم خديجة الفاضلة بل كانت كثرتهم خير مقدمة لخير نتيجة هي ظهور ذلك الرسول الكريم الذي كان من أكبر مميزات جماعته الامر بالمعروف والنهي عن المنكر، أولئك الذين وافاهم الوحي بنعتهم بما هم أهله قائلاً (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله)

الفصل السابع

جمال خديجة والجمال عند قومها

الجمال محبوب لذاته عند الطبع، ومحبوب لفائدته عند العقل، ومع كثرة ما ألفت العيون رؤيته، والأذان سماع أحاديثه، لا تزال أسرارته موضوع التفكير، ولا تزال دقائق تأثيراته محل الإعجاب، كيف لا وهو السر الأعظم في جذب الإنسان إلى مقاماته العلى من الإبداع، والسبب الأكبر في إبعاد ما بينه وبين الحيوان في مراقبي الوجدان والادراك، فشرفه مجمع عليه عند بني آدم بغير خلاف بينهم. وإما قوم حرموه فقد باؤا بحرمان عظيم. ولذلك لم نجد بدا عن ذكر هذه المزية الأخرى لقوم «خديجة» فإنها مزية جديرة بالذكر لاسيما بعد أن اشتهر عند من لم يعرف هؤلاء القوم أنهم كانوا لا حظ لهم من الجمال، ولا ذوق لهم في الحسن، ولا نصيب من توجه النفس إلى الأحسن

كبرت سبة أن يكون قوم «خديجة» على ما يظن هؤلاء الذين لا يتألف في ذهنهم أن يكون القوم سكان إقليم حار وذوي شظف من العيش ثم يكونوا مع ذلك ذوي خلقة جميلة وصورة بديعة

وكبر منا تقصيراً أن لا نبين في هذا الباب ماهو من جملة مناقب هذه السيدة وقومها فإن استغرب قوم لم يبيروا أسرار الخليقة نظرة تخصيصنا فصلاً لهذا الموضوع فإنهم سيرونه فيما بعد مكيناً في موضعه على أنه سيجد فيه المتفكرون أصحابهم الأنيس ويمجدوه فيهم أهله الكرام

ان العرب قد تنا سبت أجزاءهم ، وتناسقت أوضاعهم ، واعتدلت أشكالهم ، بياضهم جميل ، ليس فيه بهق بعض الاجيال ، وأدمتهم لطيفة ، ليس فيه حلكة بعض الاقوام ، ولعل من فازت من حسانهم بخض عظيم من الجمال تقل نظائرها في حسان الآخرين ، وتكون آة المنتهى في جمال العالمين ،

والمشهور ان الجمال يختلف في أذواق الناس ولكل جيل قياس في الحسن لا يأتي عليه قياس جيل آخر ولكن من أمعن بما يتناقله السك من صفات الحسن يجد ثمة جهة جامعة ومقياسا واحدا تنفق معه المتاييس كلها وذلك ان الحسن الذي لا خلاف فيه ليس هو بلون الاديم وانما هو باعتدال القامة ، واستواء الهامة ، وتناسب اجزاء الوجه ومقاطعه ، وحلاوة المبسم ، وملاحة العينين ، ولطف الحاجبين ، ورقة الشفتين ، ولعل هذه المذكورات تكثر في العرب حتى ندر ان نجد غير موصوف او موصوفة بالحسن من مشهوريههم ومشهوراتهم . واذا اضيف الى ما ذكرناه بياض الاديم وتشربه بحمرة او صفرة كان ذلك فضلا في الجمال . قد يبلغ به منتهى الكمال ، ولم يكن هذا اللون قليلا في العرب عامة وقوم خديجة خاصة

والعرب لم يكثروا في كلامهم من شيء بمقدار ما اكثروا من وصف الجمال وقد رأيناهم يستحسنون هذين اللونين كثيرا : البياض المشرب بحمرة او البياض الضارب الى صفرة وقال ذو الرمة احد شعرائهم :

بيضاء صفراء قد تنازعها لونان من فضة ومن ذهب

وهذا اللون هو لون اللؤلؤ وقد جاء في القرآن المجيد تشبيه حسان

الجنة باللؤلؤ المكنون ولا يختلف أحد الى عهدنا هذا في أن هذا اللون هو الذي تكون صاحبه أقرب الى الكمال في الجمال اذا أخذت بحظ من تناسب بقية الإوضاع ، فانه عند ما ينطبع فيه الاحمرار لسبب من الاسباب تكون حمرة أطف من الحمرة الملازمة لبعض البيض وعن مثل هذا زهر عدي بن زيد أحد شعراء العرب بقوله :

حمرة خلط صفرة في بياض مثلما حاك حائك ديباجا

ولكثر البياض اللطيف في العرب شبهوه بالصبيح واشتقوا من الصبح لونا فقالوا للأبيض صبيح ، واشتقوا من الزهر لونا فقالوا للأبيض المشرب بحمرة أزهر ، وتشبههم بورد الحدود داليل على كثرة هذا اللون فان هذه الحمرة لا تنطبع إلا على أديم أبيض ، ورأيانهم يشبهون الادناق كثيرا بأباريق الفضة كما قالت قريية بنت حرب أخت أبي سفيان في أعمامها وأخوالها

وليس بعجيب بعد أن كان الجمال الرائع من جملة خصائص العرب أن نجدهم مغرمي القلوب بمجالي تجلياته ، منصرفي الوجود الى مشارق أنواره . ثم لا بدع بعد ذلك اذا وجدنا حب الجمال قد لطف أذواقهم ، وعودهم على الاستحسان ونقائهم من حال الى حال ، الى أن تهبطوا لقبول الدعوة التي رقت بهم من هذا الجمال الى أدلى ، ومن هذا الغرام الى ماهو أولى ، نقلتهم الى تصور الجمال الالهي مصدر كل جمال ، وورقت بهم الى عشق الكمال المعنوي الذي هو فوق كل كمال ، فلم يصعب على أولئك

الذين شفقهم الجمال المحسوس ، أن يفهموا الجمال المعقول ، وإن زدادوا نصيباً منه مع نصيبهم من ذلك ، ولم يعزّ عليهم أن ينتقلوا الى العالم الجديد الذي دُعوا اليه ، لأنه تبدّى لهم أجمل مما كانوا عليه

ونحن إذ نرى للعرب الحظ الاوفر من الشفق بالحسن والاستحسان يزيد قدرهم في اعتقادنا ونرى من غير تردد انهم كانوا لذلك العهد من أرقى الاجيال الراقية على بعدهم عن الزخرف ، وعدم تعلّقهم بكل أسباب الحضارة ، ولعلنا اذا بحثنا عن المؤثر الاعظم في وفرة جمال هذا الجيل نجد ذلك لانهم خصوا بأخذ المعتدل من المعاش ، وانتقل في المعتدل من الاقاليم ، وحبّب اليهم المعتدل من المهن والاعمال ، وأضافوا الى ذلك أنهم لا يتزوجون من غير رؤية غالبا ولا انتخاب دخل كبير في تحسين الجنس وتجويد النسل .

وإن بدا لأحدهم أن يتزوج بمن سمع بحالها سماعاً تجده لا يقصّر في البحث والتدقيق بواسطة من يثق بحسن ذوقهن ، وجودة إمعانهن ، والحكاية الآتية تدلنا على مقدار حرصهم على اختيار الجميل وعلى مبلغ هذا الشعب من الجمال :

أراد ملك من ملوكهم (هو عمرو بن حجر ملك كندة جد امرئ القيس) أن يتزوج ابنة عوف بن محلم (الذي يقال فيه لا حرّ بوادي عوف لا فراط تزّه) وكانت ذات جمال فوجه اليها امرأة يقال لها عصام لتظر اليها وتمتحن ما بلغه عنها فلما رجعت قال لها الملك « ما وراءك يا عصام » قالت رأيت جمهة كالمرأة الصقيلة يزيناها شعر حالك ، ان أرسلته خلته السلاسل ، وان مشطته خلته عناقيد كرم جللاه الوابل ، ومع ذلك حاجبان

كأننا خطا بقلم ، أو سوّدا بحمم قد تقوسا على مثل عين العبرة ، التي لم
يزعجها فأنص ولم يذعرها قسورة بينهما أنف كحد السيف المصقول لم يخنس
به قصر ولم يعض به طول حفت به وجنتان كالارجوان ، في بياض محض
كالجنان شق فيه فم كالخاتم لذيد المبتسم فيه ثنايا غرر ، ذوات أشريته قلب
فيه لسان ، ذو فصاحة وبيان ، يزين به عقل وافر ، وجواب حاضر ، يلتقي
بينهما شفتان حمرا وان كالورد ، يحاذيان ريقا كالشهد ، تحت ذاك عنق كالبريق
الفضة ، ركب في سدرها بمثال دمية ، يتصل به عضدان ممتثلان لحما مكتنزان
شجما ، وذراعا نليس فيهما عظم يحس ، ولا عرق يحس ، ركبت فيهما كفان
رقيق قصبهما ، تعقد ان شئت منهما الانامل تتأ في ذلك الصدر ثديان
كالرمانتين يحزقان عليها ثيابها - الى ان قالت حين انتهت الى وصف ساقها -
وشيتا بشعر أسود ، كأنه حلق الزمرد ، يحمل ذلك قدمان ، كحذو
اللسان - فتبارك الله مع صغرها ، كيف يطبقان حمل ما فوقهما »
ووصفهم الحسن والجمال في الشعر مشهور كقول بعضهم من قصيدة

وزين فوديتها اذا حسرت صافي الغدائر فاحم جمع
فالوجه مثل الصبح مبيض والفرع مثل الليل مسود
وجبينها صلت وحاجبها شخت الخط أزج ممتد
وكأنها وسنى اذا نظرت أو مدنف لما يفق بعد

فهذا مثال من أمثلة الجمال العربي الذي كان لهط خديجة حظ

منه كبير ولم يكن حظها هي منه قليلا

الفصل الثامن

رأؤها و الثراء عند قومها

وكان للسيدة « خديجة » مع ما آتاهها الله من الجمال وفضائل النفس حظ من الثراء أيضا و ثراؤها في حياة أبيها و كانت تاجرة و لعل أباهما خابها رأس المال باديء بدء

لم يكن اشتغال سيدتنا هذه بالتجارة شيئا يعجب منه في قومه فانهم كادوا يكونون كلهم تجارا . تنضي بذلك طبيعة مقامهم في ذلك البلد و شريعة تربيتهم على طلاب المجد و اتساع السوءود ، و منافسة الاقرب و الابعد ، و لولا شغفهم بهذا لما سمعنا بصدى همهم في التجارة من بين إخوانهم الآخرين . و لولاه لاستطابوا من العيش ما استطابه ذلك الاعرابي الذي سئل عن طعامهم في البادية فقال لسائله : « نخ بخ عيشنا عيش نعمل جاذبه ، ^(١) و طعامنا أطيب طعام و اهنؤد و أمرؤد : القت ^(٢) و الهبيد ^(٣) و الصليب ^(٤) و العلهز ^(٥) و الذآنين ^(٦) و العراجين ^(٧) و الضباب ^(٨) و اليرابيع ^(٩) و القنفاذ ^(١٠) و ربما أكلنا والله القد ^(١١) و اشتويننا الجلد ،

(١) تعلق من العلل و هو الشرب بعد الشرب « ٢ » القت الفصفصة و هي الرطبة من علف الدواب « ٣ » الهبيد الحفظل يكسر و يستخرج حبه و ينقع لتذهب مرارته و يتخذ منه طيبخ يؤكل عند الضرورة « ٤ » الصليب الودك يستخرجونه من العظام بعد اخذ اللحم منها « ٥ » العلهز قراد كبير و نبات ينبت في بلاد بني سليم و طعام يتخذ في المجاعة من الوبر و الدم « ٦ » الذآنين جمع ذو نون نبت طويل ضعيف له رأس مدور « ٧ » العراجين جمع عرجون العود من النخل « ٨ - ٩ - ١٠ » الضباب اليرابيع و القنفاذ حيوانات معروفة « ١١ » القد جلد السخلة

فما نعلم أحداً أخصب منا عيشاً، ولا أرخى بالاً، ولا أعمر حالاً، أو ما سمعت قول شاعر وكان والله بصيراً برقيق العيش ولذيذه :

إذا ما أصبنا كل يوم مديقةً ^(١) وخمس تيمرات صغار كوانز
فنجن ملوك الناس خصباً ونعمة ونحن أسود الناس عند المزاhez
وكم متمن عيشنا لا يناله ولو ناله أضحى به حق فائز
فالحمد لله على ما بسط من حسن الدعة ، ورزق من السعة . وإياه
نسأل تمام النعمة .»

هذا ما استطابه الأعرابي وحمد الله عليه هذا الحمد . وما الأعراب
إلا بشر قد يستطيب غيرهم من البشر ما يستطيعون إذا خلصوا إلى
مثل معيشتهم ومارسوها لكن من الناس من لا يطالبون في الحقيقة
ما يتيم مادة البدن فقط كما تطالبه سائر الحيوانات بل يتسابقون إلى ما به
الغبطة من المقتنيات والذخائر . ويتبارون في ما به التمايز من المستحسّنات
والبدائع ، وبمثل هؤلاء يزيد الله الإنسان بسطة من المعارف . وقوة
في المدارك

وقريش كما عرف القاريء كانوا ممن أعدهم الله عمل عظيم في
الأرض ولا يتم ذلك بحسب سننه سبحانه ما لم يكن في سابق تربيتهم
وطرق حياتهم ما يلائم الطريق الذي سيستأنفونه وما أمامهم إلا المغامرة
في السيادة على شعوب العالم بقدر ما يستطيعون فلم يكن لا تقابحهم
عتيدون لمثل ذلك أن يقبعوا في بلدهم ولا يعرفوا العالم . ولا تميل نفوسهم
إلى خيرات السماء والأرض الفائضة في ملك الله الواسع . بل اللائق

«١» المديقة تصغير مذقة ، وهي شربة من اللبن الممزوج بماء كثير

بهؤلاء أن يكون كل واحد منهم أنطق حاله بقول ذاك الشاعر من
أناء ملوك العرب (امرؤ القيس)

فلو أن ما أسمى لأدنى معيشة كفاني ولم أطلب قليل من المال
ولكنما أسمى لمجد مؤثـل وقد يدرك المجد المؤثـل أمثـالى
وحقا كانت حال القرشيين ناطقة بمثل هذا الكلام وكل منهم له
في المجد أرب فلا بدع اذا انصرفـت أنفسهم الى تحصيل المال فانه أعظم
أدوات هذا المطلوب وقد نجح فيه منهم كثيرون ونفقوا بالغنى قومهم
عند الشدائد منهم عبد الله بن جدعان الشهير بجفنته التي كان يقدمها للفقراء
والمساكين من زوار مكة وأهلها وقد أمد قومه بالسلاح في حرب حاربوها
وسلح مئة كمي من غير قومه ممن حارب معهم وفي هذه الحرب قتل
أحد اخوة السيدة «خديجة» العوام ابو الزبير^(١) ومنهم أمية بن خلف
ابن وهب وابنه صفوان الذي أثر عن النبي (ص) انه قال فيه «ان صفوان
ابن أمية قنظر في الجاهلية وقنظر أبوه» أي بلغ ماله القناطر^(٢) وكثيرون
غير هؤلاء

فبالله ما أشبه قریشا الضاريين في أغوار رمال العرب وأنجادها لنقل
المتاع من هذه البرية واليهـا على صراكبهم سفن البر ، بالفينيقين الضاريين

«١» تحاربت في هذه الحرب قریش وهو ازن وكان عمر النبي (ص) فيها اربعة
عشم عاما وحضرها مع اعمامه يهيء لهم التبل . وعبد الله بن جدعان سري شهير ومثر
كبير وهو من نخذ بني جمح

«٢» أمية من نخذ بني جمح ايضا وقد قتل في وقعة بدر وكان مع اعداء النبي
«ص» اما ابنه صفوان فاسلم بعد فتح مكة وكان من المؤلفة قلوبهم

في أكباد تلك المياه وأطرافها لنقل البضائع من هذا الشغل إلى ذاك على
مراكبهم قلائص البحر . فلئن كانت الأبناء تلك السواحل رحلتا شتاء
وصيف بين زئير الأمواج ، ومعاركة الأمواه : فلا بناء هذه البراري أيضاً
رحلتا شتاء وصيف بين عواء السباع ، ومعالجة الرمال

لعمري الحق قد أدرك القوم أن الخير كل الخير لا تقسمهم ولجرائهم
إنما هو في أن يخفوا للتجارة لأنها في الأمم أقوى الأسباب المقربة من
البدائع ، المبعدة عن الحياة الوحشية . فقاموا بهذا الرغبة خير كسالى
فكان لذلك ربهم عظما من المال ومن ملكة الاختلاط بالاقوام في
ذلك العصر السحيق والمكان البعيد . وكان بلدهم على هذا البعد عن العمران
المتصل وسطاً صالحاً للتجارة في تلك البرية بواسطة الحج الذي كانت
توجه العرب إلى البيت المعظم الذي فيها وجدير ببلدة يحج إليها العرب ، ذلك
الحج أن تكون للأمن داراً ، وإنما تسبق شجرة التجارة في رياض الأمن
وكانوا يقيمون من حولها أسواقاً موقفة في العام قبيل أيام الحج
وفدون إليها ليبيعوا ويشروا . أشهرها سوق عكاظ كانت تقوم في أول
يوم من ذي القعدة « وعكاظ » بين مكة والطائف ومن أسواقهم هذه
« ذو الحجاز » وهو عند عرفات و « منجنة » وهي موضع أسفل مكة
و « بدر » وهي بين مكة والمدينة

ولقد كان لسوق عكاظ من خطير الشأن أن النعمان بن المنذر ملك
الحيرة على اتصاله ببلاد الحضارة وبعده عن مكة كان يبعث كل عام إلى
سوق عكاظ جملاً محملة زراً وطيوباً لتباع في هذه السوق ويشترى له

بشمنها من آدم الطائف^(١) ما يحتاج إليه ولم يكن يرساها في هذا الطريق البعيد التي تمر فيه على قبائل شتى حتى يجيرها له شريف من شرفاء العرب وهذا يدلنا على أن تلك البلاد لم تكن تأتي بالحصلات من غيرها فقط بواسطة التجارة بل كانت تخرج إلى غيرها حاصلاتها أيضا ومع أن الشام مشهورة بأعنانها وفواكهها كان تجار مكة يأخذون إليها من زبيب الطائف ذلك الزبيب الذي أدهش حسنه وكثرته سليمان بن عبد الملك لما رأى بيادره فقال : لله در قيس في أي عش أودع فراخه : يريد بقريس ثقيفا فكذلك كان اسمه وحسبك أن النعمان بن المنذر كان يرسل يأخذ من أدمها

فتجار مكة لم يكونوا يذهبون فارغى الاحمال إلى الشام وإلى غيرها أحيانا بل كانوا يذهبون ببضاعة حجازية مما تخرج تلك الارض من نبات ومعادن ويرجعون ببضاعة شامية أو غيرها مما تخرج الارض وتصنع الايدي . وآخرون مقيمون غير ظاعنين ليقيموا السوق الدائمة في تلك البلدة « أم القرى »

ولا يستريح القاريء حتى يعلم ماذا كانت تخرج تلك الديار إلى غيرها من الاشياء فانه كلما تصورها غير زراعية وغير صناعية يضيق ذهنه عن معرفة ما يصلح أن يخرج منها وله العذر في ذلك أما نحن فنذهب حيرته ببيان وجيز لا يسعنا أكثر منه لثلا ينقطع الحديث فنقول إن تلك البلاد في نفسها رأس مال طبيعي كسائر البلاد . ذلك بما تشتمل عليه من معادن ونباتات برية يصلح بعضها للصبغ وبعضها للمدبغ وبعضها للطب وبعضها

(١) الادم بضمين وفتحيتين الجلود المدبوعة والواحد اديم

للطيوب وبعضها للتنظيف فإذا أضفت إلى ذلك ما كانوا يحففونه من ألبان الحيوانات وما يستخرجونه منها من الزبد ومن أصوافها وأوبارها وجلودها وما كانوا يحففون من التمر والزبيب وغيرها تجد بضاعة غير يسيرة يحمل مثلها إلى أطراف بلاد الشام مما هو إلى الحجاز أقرب بل ربما راج بعضه في العواصم

نحن اليوم لا نتصور مجتمعاً حضرياً إلا بأن يكون فيه أمير مسيطر وجندله حافظون، وزراع وصناع وتجار للمعاش ضامنون، وقد رأى القاريء أن مجتمع «خديجة» قام بغير مسيطر وجندله فعسى أن لا يقيس على استغناؤه عن سيطرة الأمير استغناؤه عن الزراعة والصناعة والتجارة كلا فإن هذه الثلاث لا تقوم لقوم بدونها. ونحن اذا ذكرنا ما كان من النصيب لقوم «خديجة» منها لا نقصد به عدم مفاخر لهم إلا من جهة أنهم تغلبوا بمدار كهم وهمهم على كل ما كان يحول بينهم وبين المغامرة في ادراك شأو الأمم والابتعاد عن البداوة من بعد أن أوشك جوار البادية أن يجذبهم إليها كما جذب اخوانهم الآخرين

فهم تحضروا في ذلك البلد بين أهل البادية وفي منقطع عن العامرة وأعطوا الحضارة حقها على صعوبة الوفاء لها بهذا الحق. وتراهم مع هذا لم يخالفوا سنن العرب فيما يأنفون منه ويرفعون عنه فأقاموا ما احتاجوا إليه من الصناعة في بلدهم ولكن على أيدي عبيدهم لأن العرب كانت تأنف من بعض الصناعة وكذلك أقاموا ما احتاجوا إليه من الزراعة على أيدي عبيدهم ولم تكن الزراعة كثيرة في بلدهم ولكن لم يكن خالياً (١٠ خديجة)

منها البتة فهناك أوديه يجود فيها الزرع والغراس وتجري فيها العيون .
وما الطائف عنهم ببعيد وهو أبو الزراعة

أما التجارة فلم تكن العرب تأنف منها فلذلك باشرها القوم بأنفسهم
كما باشر بعضهم بعض الصناعات التي ما كانوا يأنفون منها . فمنهم من
كان يبيع اللباس . ومنهم من كان يبيع الإدهان . ومنهم من يبيع اللحم
ومنهم من يبيع الاداة والماعون والسلاح . ومنهم من يبيع الرقيق خاصة
وبالجملة كان فيهم باعة لكل الاشياء التي تدور عليها حاجة الانسان المتحضر
من صنوف الاكسية المعتادة . وضروب الاطعمة والاشربة المعهودة .
وصنوف الماعون والاداة اللازمة . والعنقاير المعروفة . والحيوانات المتداولة
والاسلحة الشائعة . ولم تكن سوقهم تلك خالية من السماسرة ويقال إن
عمر بن الخطاب الخليفة الثاني الشهير كان بزازاً ويقال إنه كان يمساراً كما
أن أبا بكر الخليفة الاول كان بزازاً (رضي الله عنهما)

ومهما كان ذلك المجتمع أقل تشبهاً بالزخرف وأبعد عن التسابق إلى
المتاع الزائد عن الحاجة نرى أن حاجاته التي تحتاج إلى عمل النجار لم
تكن قليلة ونرى أنها وحدها كافية لأن يكسب بعضهم بواسطتها كثيراً
من المال فالتجارة ولا شك هي الدبيب الاول في ثراء قريش وكثرة
المترين منهم لانما لم نعهد لهم إلى ذلك العهد وجهاً من وجوه المراج
ونماء المال أعظم منها

وأصناف الاموال التي كان الثراء بها عندهم هي الذهب والفضة

والابل والرقيق . والاراضي المزروع والغراس . والاراضي للمعدن

أما الذهب والفضة فهما الواسطة العظمى في تبادل العروض والاعيان

من مطالعة أخبار القوم يظهر انه كان لديهم منهماشيء كثير. من شواهد ذلك قول النبي (ص) « ان صفوان بن أمية قنطر في الجاهلية وقنطار بوه » ومن شواهد ذلك انه بعد ان ظهر الاسلام وانقسموا قسمين أحدهما مع النبي (ص) في دار هجرته (المدينة) والآخر عدو له في وطنه مكة) أدت تصارييف العداوة الى اشتعال حرب بين الفريقين في اخل لمسمى ببدر بين مكة والمدينة فكان الظفر لا صحاب النبي (ص) ووقع ايديهم من عشيرتهم سبعون أسيراً افتدوا أنفسهم ووزنوا في فدية الواحد أربعة آلاف درهم فتكون الجملة نحو مائتين وثمانين ألف درهم أي نحو ثشرين قنطاراً مصرياً من الفضة ولم يحدث في ذلك البلد الصغير أقل غنيق من هذا المقدار الذي وزن أهل كل أسير منه ما عليه . وما هو المقدار الكبير ولكنه يدل بالجملة على وفرة هذه الدراهم وتيسرها عند القوم : منها ما ورد من انهم انفقوا على حرب النبي في أحد رشح العير التي جاء بها ابو سفيان من الشام وقدره خمسون الف دينار

وكانت النقود التي يتداولونها من ضرب الروم غالباً وبعضها كسروي ولكن لم يكونوا يتداولونها الا بالوزن ولعل ذلك لعدم اتقان ضربها على وتيرة واحدة وقد ظلت النقود الاجنبية الى أيام عبد الملك بن مروان فهو الذي أحدث النقود المكتوب عليها بالعربية

واما الابل فهي أوفر أصناف أموالهم والابل مال كثير البركة لصاحبه فالقليل منها فيه الغنى والغناء ، والنعمة والهناء : من درها النذاء ، ومن أوبازها الكساء ، ومن جلودها الماعون والحذاء ، ومن يعرها الوقود

للطمخ وكشف الظلماء . وظهورها مراكب للظمن والحمل والنجاء ^(١) وبطونها أعظم بها واسطة للنماء . فبعيشك أيها المطالع في أي صنف من أصناف الاموال الحضرية يجد أحدنا مثل هذه البركة ، التي لا تحتاج الى شيء عظيم من الحركة ؟

وأما الرقيق فقد كان في ذلك العهد يعدم الا في جميع جهات الارض . وكان هؤلاء القوم من أغنى الناس في الرقيق واذا صرنا النظر عن استهجان هذه العادة نرى ان لا شيء أنفع من عمل الآلة المتحركة بنفسها النامية بطبيعتها . المدركة بخلقتها .

وأما الاراضي للزرع والفرس فكان فيهم أفراد يملكون منها كثيراً ومن متمولى قريش من كان يملك اراضي في الطائف كعتبة وشيبة ابني ربيعة (من نخذ بني عبد شمس) وغيرهما

وكان نظر القوم الى الزرع والضرع أعظم من نظرهم الى الذهب والفضة فقد سئل بعضهم عن الذهب والفضة فقال « حيران يصطكان ان أقيلت عليهما نفدا ، وان تركتهما لم يزيديا ، ان أفضل المال برة سمراء في تربة غبراء ، او عين خرّارة ، في أرض خوّارة ، أشار بهذه الكلمات القليلة الى ان الموجب لنماء الثروة هو العمل في استخراج الخيرات الطبيعية من الارض التي هي اول رأس مال اما الذهب والفضة المتداولان فواسطة لوزن حركات دولاب الاعمال فقط . وهذا هو الاس الصحيح في علم ثروة الامم . واما أراضي المعدن فالظاهر أن بعضها كاذ مشاعا وبعضها كان مملوكا . اما كون بعضها مشاعا فنأخذ من عادة العرب في جاهليتهم من انهم لم

يكونوا خاضعين لمثل سنن البلاد التي فيها ملوك . والمعادن انما يجعل لها حمى وحرما الملوك الذين يعدونها من جملة الاموال العمومية^(١) التي هي حق للخزانة العمومية خزانة المملكة . وأما كون بعضها كان مملوكا فنستفيد مما قرأناه عن ملك بعضهم لبعضها كالحجاج بن علاط السلمي^(٢) الذي كان يملك معادن بني سليم . وكانهم لشيوع ملك بعض الناس بعض المعادن كان من الناس من يطلب من النبي بعد الفتوح أن يقطعه شيئا منها فقد طلب بلال بن الحارث أن يقطعه معادن القبلية (منسوبة الى قبل بن تحتين) وهي ناحية من ساحل البحر بينها وبين المدينة خمسة أيام فأقطعه أياها وأقطعه جبل قدس^(٣) للزرع

هذه هي اصناف الاموال التي كان بها ثراء هؤلاء القوم يضاف اليها العروض والامثلة التي كانت تتداول في التجارة ، والى مثلها يؤول اليوم كل ثراء فان ملك الارض والمعادن لا يزال أيضا ينبوعا ثرورا للثروة . واستخدام الفعلة بأجر بخس نوع من الاستعباد والاسترقاق اعني أن فائده المادية كفائده . والنقود لا تزال كثرتها وقلتها أيضا معيارا

«١» الحجاج بن علاط ليس بقرشي بل هو من بني سليم ولكنه كان متزوجا من قریش «من بني عبدالدار رهط خديجة» وكانت امواله تستثمر في مكة وكان مكثرا من المال اسلم يوم فتح خيبر ثم جاء الى النبي «ص» فقال له ان لي ذبعا عند امرأتی «في مكة» وان تعلم هي واهلها باسلامي فلا مال لي فائذن لي ان اسرع السير واخبر اخبارا اذا قدمت ادرا بها عن مالي ونفسي فائذن له النبي «ص» وقدم مكة واخذ امواله بحيلة

«٢» جبل قدس معروف في جوار المدينة

عظما لثروة الامم . وعلى مقدار ما تقدم كله يكون محور التداول للعروض والامتعة والاثاث والرياش

وقد كان من لا يستطيع ان يباشر التجارة بنفسه أو السفر من أجلها يعطي من ماله الى آخر على أن يتجر به ويكون الربح بينهما أو يعطيه بالربا وكان معهودا فيهم أو يستأجر آخر ليقوم له بتجارته والامانة هي الغالبة فلم يكن بأس على المال بتسليمه الى من يتجر به بالموءاجرة أو المضاربة بلذلك لم تصعب التجارة على السيدة « خديجة » التي كان لها من النساء قومها من الاستقلال في أموالهن ولم يكن لأبيها ولا اخوتها سلطان في ذلك المال الذي كان تبعث به الى التجارة مع ذوي الامانة ذاهبا وآيبا وفي إشار هذه السيدة إرسال أموالها في التجارة على الاتجار بالنقود في مكة كما يفعل المرابون دلالة على بعد نظرها وعلو همتها وعظيم عطفها وحنانها على وطنها فان الاوطان تسمو باقدام أرباب أموالها على نشر اسمها في العالم بالبيع والشراء واطهار صنوف الثراء . ولا يكون لها مثل ذلك بشيوع المتاجرة بالنقود^(١)

(١) ذهل الكاتب طيب الله ثراه عما هو أهم من ذلك وهو ان الثروة الوطنية انما تكون بما يربحه أهلها من خارج البلاد لا بما يتداول فيها ، والينبوع الاعظم لذلك هو التجارة، وما امتص الافرنج ثروة أهل اشرق إلا بالتجارة فيه ولولا التجارة لم يكن لمصنوعاتهم ربح من بلادنا . وكتبه محمد رشيد رضا

الفصل التاسع

نواهبها قبل النبي ﷺ

تزوجت خديجة قبل النبي (ﷺ) مرتين تزوجت أبا هالة النباش بن زرارة وتزوجت عتيق بن عابد المخزومي . وكان الزواج المرضي في الجاهلية كالزواج في الاسلام أي إن الرجل يخطب الى الرجل بنته أو من له عليها ولاية ويقدم صداقها فيزوجه . وأما ما يذكر من أنواع أنكحة الجاهلية الاخرى فهو من باب السفاح لا من باب الزواج المرضي ولم يكن السفاح والمخادنة من فعل الشرائف والكرائم ، وإنما يفعل أغلب ذلك الاماء والحقائر

وولدت هذه السيدة ولداً من أبي هالة وسمته « هنداً » على عادة العرب اذ كانوا يضعون للذكور أحياناً أسماء الاناث فهند هذا هو ربيب النبي (ﷺ) أخو فاطمة لأُمها عليهما السلام وقد عاش وأدرك الاسلام وأسلم . روى عنه ابن أخته الحسن بن علي حديث وصف النبي (ﷺ) المشهور في الشائيل وكان هند وصافاً وحديثه هذا أبلغ ما وصف به النبي ﷺ وقد قتل هند مع علي يوم الجمل

سيعجب القارىء من زيادة تعريفنا لابنها هذا ونحن لانكتمه السبب وذلك اننا نحب ان لاندع شيئاً مما يتعلق بسيرة هذه السيدة مغفلاً ومهملاً ولا سيما بعد إذ رأينا أكثر الذين كتبوا في سيرتها لم يتعرضوا للذكر ولدها هذا فكاد يضيع ويخفى إلا على المتقنين في بطون الاسفار الواسعة وعذرهم

في ذلك أنهم انما يتعرضون لسيرة هذه الفاضلة على الغالب منذ تشرفها بزواج النبي (ﷺ)

وان لنا - والحق يقال - حقاً على هؤلاء الناس الذين يريدون أن يعرفونا بشخص ممن مضى فيمسون أنفسنا بالشيء من أخباره ثم يتطعمونه ويجذبونها إلى شيء آخر

على انني لأنكر انه اذا سطعت الشمس لا يبقى لبصيص السراج مكان فمن ذا الذي يعلم أن هذه السيدة اتصلت بشمس الهدى « محمد ﷺ » وولدت منه « فاطمة الزهراء » أمّ الحسين ثم يرجع باحثاً عن ابنها ذاك من زوجها الاول أبي هالة ؟

لعمرك اذا وصلت بسيرتها إلى هذا المقام تضاءلت أمام نظرك كل ما تسمع عن أيامها الماضية واستشرفت نفسك إلى الاطلاع على هذا الشأن الجديد الذي سيكون لهذه السيدة مع هذا الزوج الكريم الذي رنّ الكون كله باسمه الشريف

فمن هنا بدء الحياة العليا لهذه السيدة ، ومن هنا بدء خلود اسمها في لوح الوجود ، وبدء إشراق مواهبها في سماء السعود ، أمامها الآن الشمس بلا حاجز ، فليستمد جوهرها القابل ، وليفيض نوراً وسناء ، وليتبارك كملاً وبهاء



الفصل العاشر

محمد عليه الصلوة والسلام قبل نزول نوح عليه السلام

واذا العناية صاحبت مرءاً فلا تكثر سؤالك فيه كيف ولم وما ودع التردد إن أتاك حديثه مهما حوى مهما نما مهما سما لا تسأل كيف أبدع الانسان من فتق السكواكب من رتق موادها، وقدر مدارات لحر كلتها، ونظامات لتقابلها، وأنشأ منهن المقسمات ليلنا ونهارنا، المدرجات صيفنا وشتاءنا، الناظمات في أحشائهن شملنا، الماديات بنسأمن نسماتنا، وبأرواحهن كياننا، ولا تسأل لم خلق لنا الأرض جميعاً لشرح أحشاءها، ولتقطع أوصالها، ولتستخرج أفلاذها، قد حصرناها على عظمها في يدنا، وحشرونا كل ما فيها في ذرات صغيرة من دماغنا، إن شئنا نرفع من شأنها بما نركب من أجزائها، فيأتي منها من البدائع ما يدهش ألبابنا، ويسحر أبصارنا، وإن شئنا لم نعبأ بها، واستشرفت نفوسنا إلى غيرها، فاطلعنا إلى مصادر الأرواح ومواردها، ومشارك الأسرار ومغاريها، وارتفعنا إلى ينابيع الأكوان ومظاهرها، وتلمسنا نعمة حياة لا نحتاج فيها إلى ماء الأرض وهوائها، وترابها ونارها

ولا تسأل كيف تقاربت صورنا معشر الانس وتباعدت حقائقنا، ولم طالت آمالنا وأعمالنا، وقصرت آجالنا وأعمارنا، ولم جشعت نفوسنا بتكثير الصور ثم شغفت كل نفس بأنواع منها، وتخالفنا في تمييزها وترجيح

بعضها على بعض ، وتدابرنا في مناهج طلابها ، وتقاطعنا في سبيل اكتسابها ،
ولم هذا البون في انصباتنا ، والفرق في مرامينا ، والبعد في مدارجنا ،
والغبين في معارجنا ؟

ولماذا منا أناس مع الكواكب مداركهم ساجحة في أفلاك الخقائق ،
وبروح الرقائق والدقائق ، ومع الانوار سيرهم منتشرة في سابق الدهور
ولاحقها ، وبادي الشعوب وحاضرها ، وآخرون مع الديدان مشارهم
دابة بين أوراق الآجام وأحطابها ، أو تحت دخان القفار ونقمها ، ومع
العصف صورهم منطوية في احشاء الاواكل ، ومندرجة في الاواخر مع
اخوانهم الاوائل ؟

لأتسأل عن هذا كله إن كانت نسك قد وقفت عند مطماها من
معرفة الاول الآخر ، الظاهر الباطن ، ذي الحياة الازلية الساري
سرها في الاكوان والوجودات ، البادي خط جلالها وجمالها على لوح
الآيات البينات ، من الاشكال والتنوعات ، (ومن آياته أن خلقكم من
تراب ثم اذا أنتم بشر تنثرون * ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم
أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم
يتفكرون * ومن آياته خلق السموات والارض واختلاف ألسنتكم
وألوانكم إن في ذلك لآيات للمائين * ومن آياته منامكم بالليل والنهار
وابتغائكم من فضله إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون * ومن آياته يريكم
البرق خوفاً وطمعاً وينزل من السماء ماء فيحيي به الارض بعد موتها
إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون * ومن آياته أن تقوم السماء والارض
بأمره ثم اذا دعاكم دعوة من الارض اذا أنتم تخرجون)

إذا وقفت نفسك عند هذا المظلم من المعرفة فاعلمها تصل بك إلى معرفة أن ذا الحياة الازلية ذو حكمة ليس في وسع استعدادنا أن نحيط بأسرارها خبراً مهما حامت حولها آمال مدار كنا ، ومهما طافت في سوح قدسها صوافي سرائرنا . فأخلق بأحدنا أن يتذكر في هذه المسابح الفكرية عجز جُنجة عقولنا عن أن تصل بنا إلى مادون هذا السر الاعظم . ووقوعها بنا في كثير من أشراك الاوهام في الوجودات التي هي تحت حسوسنا ، وفي جوار جسومنا ونفوسنا

وعسى أن نرق بك هذه المعرفة إلى الازعان بأن هذا الحي الازلي الحكيم ذو عناية ربانية لا يحاسب على ما يختص بهما من يشاء فله الامر كله فيما يسديء ويصور . وله الحكمة فيما ينوع ويميز . منه كل شيء واليه المآب

وإن كنت في ريب من الحكمة الازلية . والعناية السرمدية . فعد نفسك واقفة ماشاءت في دتمة النفي . أو دائرة في سجن الشك . أو طائفة في جو الوهم لا قرار لها . واما نحكي هنا للذين هم برهم يؤمنون

سبق في العناية الازلية أن تكون هداية شعوب كثيرة إلى أقوم سبل الحياة على يد رجل من العرب يرتفع ه اسمهم في العالمين وكان من هذا الشرف الذي اعتده الله للعرب أعظم نصيب لعبد المطلب الذي أخرج الله انسان هذه الهداية من أولاده

كان عبد المطلب (١) من كبار أشرف قريش ورزق عشرة أولاد

«١» اسم عبد المطلب شعبة وتسميته بعبد المطلب حكاية وهي ان أباه هاشم =

من الذكور وكان ابنه عبدالله أحبهم اليه فزوجه شريفة من شرائف قريش من بنى زهرة تدعى آمنة حملت منه وقبل أن تضع حملها توفي فلما وضعت كفل وليدها جده وكان هذا الوليد المبارك «محمداً» صاحب القرآن فما أسعدك يا عبد المطلب أكنت تدري وأنت في أبواب أبرهة الحبشي تتطلب منه رد ذلك القليل من الابل الذي لك مما استاقه من إبل مكة أن سيولد لك في هذا العام حفيد تنثني أعناق الملوك في الاجيال المقبلة خاضعة لذكوره ؟

أكنت تفكر إذ قصارى أملك حفظ مقامك بين قومك المنتطحين في تلك البرية أن اسمك سترن به المحافل في الامصار النائية والشعوب المختلفة على مدى عصور كثيرة كلما ذكر سب حفيدك العظيم الذي اعنده الله لمنصب يتبعه من أجله العالم ويبقى ذكره فيهم إلى الابد ؟
أخطر على قابلك أن بلدك المقدس الذي لم يكن يحج اليه إلا العرب ستحج اليه كل شعوب الارض اتباعاً لما جاءهم به حفيدك من الهداية ؛
أجاء في خلدك أن كنتك آمنة الزهرية انما ولدت من يشرف الله به قومك ويجمع به كلمتهم ، ويعلي سلطانهم وينشر لغتهم ، ويقم لهم محمداً مع الدهر مذكوراً ، وفي كتاب العالم مسطوراً ؟

= كان قد تزوج امه من بنى النجار في «يثرب» (المدينة) فلما ولدته تركه عندها حتى كبر وكان هاشم تاجراً فخرج بتجارة الى الشام فأت في «غزة» فذهب اخوه المطلب بن عبد مناف ليأتي بآن اخيه فأبى والدته ان تعطيه اياه حتى اقمها بأن اقامته في بلدته وبين قومه وعشيرته خير له ولما جاء به كان مردفه خلفه على بئر فظنت قريش انه عبد ابتاعه فقالوا عبد المطلب وقال لهم المطلب ويحكم اما هو ابن اخي هاشم قدمت به من المدينة ولكن ذاعت كلمة عبد المطلب فاشتهر بها وصارت كأنها علم له .

هل كنت ملهما إذ سميت محمدًا ؛ وكنت على رجاء كبير بأن يقيم له
العالمون تحميلاً لا ينقطع . وتمجيداً لا يزول ؛
أعرفت أنك بحفظك هذا اليتيم وكفالتك إياه وعنايتك به إنما
كنت تحفظ للعالم كله التحفة التي آتاهم الله من كرمه . والودعة القدوسية
التي اختص الله ببيتك لظهورها ، وقومك لا تتشار مبدئ نورها ؛
فأنت بما أوتيت من هذه السعادة الخالدة جدير أيها المخصوص بعناية
الحي الأزلي . فليدم ذكرك جمالاً للمحافل ، واسمك سامياً مع اسم حفيدك
نبي الشعوب وبركة العالم

كانت ولادة محمد في القرن السادس من ميلاد المسيح عليهما الصلاة
والسلام أي حوالي سنة سبعين وخمسة مئة منه وحوالي السنة الثامنة
والاربعين من ملك كسرى أنوشروان . ولم يكن قومه يعرفون سني
الأمم وتواريخها ولا سني أنفسهم وإنما كانوا يحفظون الأعمار ويقتنون آجال
الأشياء بالوقائع الشهيرة والحوادث العظيمة كما هو شأن الأميين إلى عهدنا
ولدعام الفيل وهي سنة اشتهرت بهذا الاسم لوقوع حادثة فيها عندهم تدور
صفوة حكايتها على حرن فيل القائد النجاشي وإبائه المسير للقاء مكة فلذلك سميت
بهذا الاسم . وحادثة الفيل شديدة الشهرة ويصح أن نقول إنها من التاريخ
المتقدس عند المسلمين أي أنها ذكرت في القرآن وليكن على أسلوبه في
التقصص التي يذكرها الأجل العبرة فقط لا على أسلوب المؤرخين ونقله الأخبار
وقد أعطي لمرضة على عادة قريش في إعطائهم الأولاد المراضع
من القبائل النازلة قرب مكة ابتغاء أن تترى أجسامهم في البادية حيث
الأرض النظيفة قد كسيت من الأزهار أبدع التمارق الطبيعية والنسائم

متحملة من ذلك العيب تهديه إلى النفوس رائحة وغادة

إذا بزغ رأس النهار أرسل إلى أفئدة أهل النشاط روحاً مبشراً بظيب عقي العمل ، وسوء منقلب الكسل ، وكأن بينه وبين سكان البراري وساسة الأنعام عهداً أن لا يقبل بطلمعه الباسمة إلا وهم مستقبلوه بالتحيات الطيبات من مباسم همهمهم ، وثغور اجتهادهم ، ورافعون إليه آيات الشكر على ماله من الأيادي البيضاء في اخضرار تيشهم ، وابيضاض وجود آمالهم

بزغ الفجر يوماً على نسمتين في أباطح تهامة قد أسفر دليهما البشر وتقدت الغبطة من أعماق جوانحهما إلى أسارير وجهيهما ، ولم يكن ذلك الانس والبشر لما حولهما من مجالي عرائس الطبيعة لأن السماء كانت شحيحة عليهم تلك السنة فلم تترع حياضهم . ولا أوقفت رياضهم ، ولو لم يتن الوادي لهم القليل مما أغشوا به مرة لقتلهم الظأ - ولما حولهما من وافر الرزق وسابغ النعم لأنهم لم يكرهوا إمكان الإغنيات قد جارت عليهم السنة ، وقتلها الجهد والجذب ، ولسكن كان ذلك السرور بنعمة جديدة أصابها فلا تهما فرح ، وأشبعتهما ابتهاجاً ، لم يكرهنا يفتران عن هذا الحديث الذي كانا نتغذيان به صباح مساء ، ويجددان به شكر أعلى هذه النعماء ، وهذا ما كانا يتحدثان به :

- حقاً يا حليلة إنك قد جئتنا بتحفة سنية ونسمة مباركة

- أي والله يا طارث وانظر ما أجمله ، انظر إلى هذه الاشفاار الهدب

انظر إلى هذه العيون الدسج ، انظر إلى هذا الجبين الازهر ، انظر ما أبهى انعكاس هذا الضياء المقبل من الشرق على مرآة هذا الجبين

كان هذا الحديث يجري بين امرأة وزوجها من قبيلة بني سعد ببيعة يوم كانا قبله في مكة وكانت هذه المرأة هي التي جاءت بحفيد عبدالمطلب

لترضعه وقد حدثت هي حديثها كيف جاءت به وكيف رأت من بركتها قالت:

خرجت مع زوجي وابن لي صغير علي أتاني لي قراء^(١) معنا شارف^(٢)

لنا والله ما تبض بتطيرة ، وما ننام ليلنا أجمع من صبينا الذي معنا من

بكاؤه من الجوع ما في ثدي ما يغنيه ، وما في شارفنا ما يغذيه ، ولكننا كنا

نرجو النيث والفرج ، فخرجت علي أتاني تلك فلقد أذمت^(٣) بالركب

ضعفاً وعجفاً حتى قدمنا مكة فالتمس الرضعاء فما منا امرأة الا وقد عرض

عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فتأباه اذا قيل لها انه ينم وذلك انا انما

كنا نرجو المعروف من أبي الصبي فكنا نقول ينم وما عسى أن تصنع

أمه وجدده ، فكنا نكرهه لذلك فما بقيت امرأة قدمت معي الا أخذت

رضيعاً غيري فلما أجمعنا الانطلاق قلت لصاحبي « والله اي لا تتركه أن

أرجع من «بن صواحي ولم آخذ رضيعاً والله لا ذهبن الي ذلك اليتيم فلا خذنه»

قال لا عليك أن تفعل عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة ، قالت فذهبت

اليه فأخذته وما حماني على اخذه الا اني لم أجد ذيره . قالت فلما أخذه

رجعت به الى رحلي فلما وضعت في حجره قبل عليه ثدياي بما شاء من

ابن فشرب حتى روي وشرب معه أخوه حتى روي ثم ناما وما كنا ننام

معه قبل ذلك . وقام زوجي الي شارفنا تلك فاذا انها حافل^(٤) حلب منها ما

شرب وشربت معه حتى انتهينا ريا وشبعنا فبتنا بخير ليلة قالت : يقول صاحبي

حين أصبحنا تعلمين والله يا حليمة لقد أخذت نسمة مباركة ، قالت فأتت

والله اني لا رجو ذلك . قالت ثم خرجنا وركبت أتاني وحماته عليا بهمي فوالله

(١) القمرة بالضم لون الى الخضرة او يباض فيه كدرة . حمار اقر وانان قراء

(٢) « الشارف الناقة المسنة » (٣) اذمت بالركب اي حبستهم لا تفتطع سيرها من عجزها

اي هزالها وضعفها . وأذنت الركاب تأخرت من الكابل . وأصله أت ما تقدم عليه

(٤) « حافل كثيرة اللبن

لقطعت بالركب ما يقدر عليها شيء من محرهم حتى ان صواحي ليقطن لي
 « يا ابنه ابي ذؤيب ويحك اربعي دلينا (١) أليست هذه أتانك التي كنت
 خرجت عليها ؟ فأقول لمن بلى والله انها لهي . فيقطن والله ان لها لشأنا »
 قالت ثم قدمنا منازلنا من بلاد بني سعد وما أعلم أرضاً من أرض
 الله أجذب منها فكانت غنمي تروح على حين قدمنا به . مننا شباعا لبناً
 فنجاب ونشرب وما يحب انسان قطرة لبن ولا يجدها في ضرع ، حتى كان
 الحاضرون من قومنا يقولون لرعايتهم ويلكم اسرحوا حيث يسرح راعي
 بذت ابي ذؤيب . فتروح أغنامهم جياً ما تبض بقطرة لبن ، وتروح غنمي
 شباعاً لبناً ، فلم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير حتى مضت سنتاه و فصلته
 وكان يشب شباباً لا يشبه الفيلان »

فيالك من سعيدة يا حليلة اذ كتب لك ارضاع اليتيم الذي تربيته العناية
 الخاصة ولم يكشف لك من آثارها الا هذه البركة التي ملأت بيتك وويلكن أيتها
 المراضع الغيبات المعروضات عن اليتيم التماساً للرضعاء الذين لهم آباء . لقد فاتكن
 الخط وما الخطوظ بالا اختيار ، وعزاء لكم أيها اليتامى فقد عاش محمد العظيم يتاماً

بعد ان ربي « محمد » (ص) في بني سعد عند السعيدة حليلة جيء
 به الى أمه فذهبت به وهو ممتليء قوة وهو ابن ست سنين الى المدينة
 لتزيره اخواله من بني عدي بن النجار وفي عودتها الى مكة توفيت في مكان
 يسمى الابواء . وكان عبد المطلب شديد العناية بحفيده ويتوسم فيه علو
 الشأن فلما بلغ الثامنة من عمره ودعه مفارقاً هذه الدار ، وادعه لدى الجناح
 الالهي الذي من لدنه واردات البر والبركات اليه ، ونوافح الرأفة والحنان عليه ،

وقام مقامه ابنه ابو طالب شقيق حيد الله ابي النبي (ص) فأدخله في آل بيته وتعهد تربيته وتثقيفه

وكان أبو طالب امرأً نبيا شهما صادق المروءة ماضي العزيمة نصارا للعدل والانصاف. عرفنا كل ذلك فيه من تكليفه نفسه اقصى ما يمكن ان تكلف النفس في حماية ابن اخيه لما قام بالدعوة، ومن مواقفه أمام قريش في نصره والذود عنه. وقد خلف ابو طالب أباه عبد المطلب في المقام السامي بين قومه فكان ابن عبد الله يتنقل في بروج العز والسؤدد والسعادة في آفاق الشرف الهاشمي. وتنطبع في جوهره الكريم صور البر والعدل والاحسان على مثال الخلال الشريفة التي كان يتحلى بها ذلك الرجل السامي الترية (ابو طالب) نحن قد رأينا من آثار العناية الازلية بذلك اليتيم العزيز ما يصح القول معها انه كان مستغنيا عن تربية أحد ولكن لماذا نقول ان اعداد ذلك العم الفاضل لتربيته في الصغر كان من جملة آثار العناية الفائقة به^(١) أما تربيته اياه الترية الجسدية فقد كانت على غاية ما يتصور علماء الصحة ولذلك جاء من آثارها قوة جسمية لهذا المبارك لا نظير لها، وصار على صورة من الجمال كانت تجعل الذين يرونه يقولون لم نر مثله. ولا يتم الجمال الا بصحة البدن وهي انما تتم بحسن الترية الجسدية.

(١) ان جل ما ذكره المؤلف رحمه الله في الفصل استنباط من قريحته ليس فيه شيء منقول يثبت ان أبا طالب كان ممتازاً بما يذكره من شؤون الترية يتوخاه في ترية ابن اخيه بحيث ينسب اليه ما امتاز به (ص) على الأتراب وغيرهم منهم اولاد ابي طالب وقد بالغ الكاتب فيما ذكره فيه من تلقينه انواع الدروس التجارية والاجتماعية في استصحابه اياه في سفره الى بصرى من بلاد الشام وهو ابن ١٢ سنة وقيل ابن ٩ سنين

وأما تربيته إياه التربية العقلية فكانت جديرة أن يسجد أمامها فلاسفة النفس واساطين العقل ، وهناك من آثارها قبل النبوة ما يجعلنا في حيرة من أمر هذه القبيلة الصغيرة المتباعدة في دارها عن مناشي الارتقاء العقلي ، ومناجم الاشراف الفكري ، لا كتب يدرسونها ، ولا قوانين للمعارف يرتبرنها ، ولا شيء الا غرائز طيبة يتوارثونها ، وقواعد عامة تناقلونها ، وحصافة أو توها في نقش أصح التجارب في المدارك ، والاحتفاظ بأثبت النوائد في الذواكر وكذلك يفعلون في التربية الاخلاقية : ينشئون الذرية على دروس المشاهدة في مدارج العمل ، ودروس القصد والاعتدال في معارج الامل ، فيأتي من تلك السلائل التي لم تلحقها عدوى الاجيال الفاسدة نوابغ العقول والاخلاق ، أفذاذ في المهمة والاعمال طبع من المربين ، ونقش من المثقفين ، وذلك كان شأن ابي طالب ودأبه مع ابن اخيه العزيز ، وربيبه النجيب ، نشأ « محمد » (صلوات الله عليه) في امثال التربية بانواعها كلها على يد ذلك الماضل العظيم جاء منه رجل أحسن الناس خلقا وخلقاً ، اذكاهم عقلاً ، وازكاهم نفساً ، واصدقهم لساناً ، أنداهم في العرف يداً ، واثبتهم في الازم قلباً ، أرحمهم للضعيف ، وأشجعهم على القوي ، أبرهم للقريب ، واعتدلهم للبعيد . أقر بهم الى المعروف سمعاً ، وابعدهم في الامور نظراً ، أسدهم رأياً واشدهم اقدماً ، لينهم للصاحب جانباً ، واكرمهم للخير صاحباً . وحسبك انه عرف منذ صباه بالأمين ، وما زال على هذا المنوال حتى أكرمه الله بذلك المنصب العظيم ، فزاده جمالا وجلالا وكامالا ، والله أعلم حيث يجعل رسالته نشأ ذلك المربي على كل ما يزين الرجال من الاعمال فلما كان ابن اثني عشرة سنة سار به الى الشام وكان ابو طالب تاجرا فافرقه في هذا السفر

علي ما تكن الارض وتعلن من طبائع الاقاليم المتغيرة ، واحوال العالم المتحولة . ففي طريقهم من مكة الى الشام منازل امم كانت فبانت . كانوا على وجه الارض جمالا لها فلما فسقوا عن السنن التي تحيا بها الامم شالت نعماتهم طرا . وطارت نعمتهم جميعا ، وأصبحوا كأن لم يكونوا « فتلک مساکنهم لم تسکن من بعدهم الا قليلا » وفي رؤية أمثال هذه المنازل الخاوية أو المنتقلة الى غير أهلها عبرة عظيمة هي أجل ما في السفر من النوائد : ولقد كان فيما أوحى الى هذا المزمع عليه بعد ان صار نبيا قوله سبحانه (أولم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأناروا الارض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون)

وفي طريقهم هذه أوقفه عمه على قرى الشام ودساكرها ، ومزارعها ومصانعها ، ومتاجرها وحكومتها ، وأراه كيف يكدرح الناس جميعا لياكل نقر منهم خبزه بعرق جبينه ، وليتمتع نفر آخرون بشمرات تلك الارض الطيبة ، ونفائس مآثمه تلك الايدي الثقفة ، وكيف يعمل هذا الهذافي الاجتماع ليتم قوامه ، ويحفظ نظامه

ومر به على الاديار والصوامع حيث ينقطع نفر آخرون عن المزامعة في هذا الخطام الزائل ، متوجهة نفوسهم الى الوطن الذي يليق بالروح الغريبة في هذا الهيكل الجسماني ، غير ممدودة أيديهم الى شيء من هذه الارض الا الى ما يقي البدن من جوع وعري ، وذلك يتيسر ببعض حبوبها وأعشابها ، وبعض أصواف حيوانها وأوبارها

في بعض تلك الاديار في « بصرى » وقف به على الراهب « بحيرا »

وكان على حظ عظيم من علم الفراسة أو الكهانة فأنبأه بما سيكون لابن أخيه من الشأن العظيم وأوصاه بمزيد العناية به

وفي هذه السفرة مر به على أساليب التجارة ، وأطلعته على ضروب البضاعة ، وصنوف الاداة والماعون التي يتعاطى التجار تبادلها وكيف يحمل كل منهم من بلده ما لا يكون في غيره ثم يحمل الى بلده ما ليس فيه وكيف يكون لهؤلاء الوسطاء في نقل حاج الناس من الفضل العظيم في ترقية البدائع الانسانية ما ليس لغيرهم

فناهيك بما ملأ به أبو طالب ذهنه في هذه السياحة التجارية من صنوف المعارف وأنواع التجارب وفي درس كهذا من فوائد التربية العملية ما ليس في ألف درس من التربية الكتابية او النظرية

ولما كان ابن أربع عشرة سنة أحضره معه في حرب الفجار — وهي حرب هاجت بين قريش وبين قيس — فرأى في هذه الواقعة كيف تعاضد الصفوف وتتقابل الأبطال وكيف يصبر الشجعان وان أودى بهم الصبر الى حتفهم ، وكيف تكون نتائج الصبر وحسن التدبير في الحروب وكيف عاقبة الذين تنقطع قلوبهم جبنًا وتخور عزائمهم جزعًا

ولم يباشر في هذه الحرب قتالا وإنما كان ينبل على أعمامه أي يناولهم انبل أو يرد عنهم النبل. وكان ذلك كافيا لتمرنه على مواطن النزال ، ومواقف النضال وليس يخاف ان الاخذ بيد الناشئ الى معارك أبطال المبايعات. ثم معارك أبطال المقابلات والمقاتلات هو أعظم الوسائل التي تجعله أهلا للمقامات العلى بين الرجال ، حتى اذا أتاحه الله للأخذ بقوم الى سوح العز والسؤدد والصلاح والنجاح. كان ثم الدليل المحاذي. ونعم المسائق والمحاذي

فلما بلغ خمسا وعشرين سنة عرضت عليه سيدتنا «خديجة» ان يخرج في تجارة لها الى الشام وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره من التجار وأشار عليه عمه بتبول ذلك وطلب له أضعافا فرضيت وسار بتجارتها مع الركب الى الشام ومعه عبد لخديجة اسمه «ميسره» فلما رجع بالبضائع اليها باعتها فربحت أضعافا وكان هذا بدء تاريخ جديد للسيدة «خديجة» معه

الفصل الحادي عشر

الحب الشريف

ان أشرف السير سير أهل الفضيلة وما الفضيلة إلا من خصائص النفوس ، فمن كان من عشاق الفضائل حسن به أن لا تفتقر نظرات بصيره الى النفس فهي مسندة الخوارق . ومستودع العجائب النفس مجلى الآيات الكبرى ومهيبط الفيوضات العلى ، والمرآة العظمى التي ينكشف بها الازل والابد ، والمطبعة العظمى التي ترسم بها الاشياء وتكثر الصور ،

هي السلك الممدود بين مبدع الطبايع ، ومقيم الشرائع . وهي الجواهر المتألفة الصامته ، والظواهر المسخرة للطبيعة ، فهي خليفة عليها واقفة على خطواتها ، مشرفة على حركاتها ؛ وهي مجذوبة من طرف اليها بجاذبية الانس والمادة . ومجذوبة من طرف آخر الى مصدر بوارقها بجاذبية الحب والشوق ، فبأنجذاب النفس الى الظواهر تأخذ الظواهر حظها من الانكشاف ، وبأنجذاب النفس الى مانع الظهور تأخذ النفس

حفظها من الشهود والاشراف ، فيحق لها في الحالتين أن تتمجد باميزها به فاطرها تباركت عظمته ، وتعالى شأنه ،

أعظم خصائص النفس الحب والبغض بل ان هاتين الطبيعتين المتضادتين أعظم نواميس الاكوان والوجودات كلها ، لكن اختلفت المحبات ، وتباينت الاشواق ، وأوتيت النفس الانسانية أعظم نصيب من هاتين الطبيعتين لاتساع المحيط الذي تدور فيه ، ولاتصالها بعالم الحسن وعالم الغيب وتردها بالانجذاب بينهما ، فهي ان وقفت يوماً مع الظواهر أنست بها فعشقتها لما رش عليها مبدعها من الحسن الذي هو وصفه ، وان ارتفعت الى البدع دهشت فتولعت فتدلعت لما هنالك من المجالي الازلية التي تطير السرائر شوقاً الى التمتع بها

الفضائل والردائل ، الخيرات والشرور ، الحزن والسرور ، الرغبة والرغبة ، الاقدام والاحجام ، الكسل والنشاط ، الارتناع والهبوط . كل ذلك من مبتدعات الحب والبغض وآثارها . وكل درجة من هذه الاشياء فاما هي على مقاييسهما . هما بالاختصار ركنا السعادة والشقاء . فمن هدي الى تصريفهما والجري بهما على سنة مثلى فقد أهديت اليه السعادة وأوتي بالحب الشريف والبغض الشريف حظاً من الخير عظيماً



كانت السيدة « خديجة » ذات قلب طاهر والقلب الطاهر مركز الحب الشريف ، فاذاً أحبت سيدتنا هذه ؟ كان قلبها تواقاً الى معالي الامور ، عظيم الشغف بمحاسن الاخلاق . وقد أمد الله فطرتها امداداً عظيماً

فقويت معرفتها بالمكارم ، وعظم علمها بأن الفضائل هي التي تليق بالإنسان سواء وقفت نفسه مع هذه المحسوسات أم أرادت أن تدرج في زمرة عشاق المجالي الازلية

عرفت هذه السيدة صلة النفس الانسانية بمن منه انشقت أسرارها ، وانفتقت أنوارها ، فكان لها تشوف إلى جود عظيم يفيض عليها من العناية الربانية ، كما هو شأن ذوي السرائر الصافية ، وحصل لها من هذه الحالة الطيبة قوة فراسة والفراسة نور ، فكانت تهدي بها فما هي حائمة الروح (١) عليه من الفضائل ، ومن أحب شيئاً أحب أهله من أجله ، فلما عرفت ابن عبدالله ووجدت فيه ما يعشق من المزايا العلية ، انتشرت حبة من تلك المحبة الشريفة التي كانت بها تنشد المكارم فوقعت في محل من قلبها لتنبت شوقاً إلى هذا الرجل الصالح الذي ألقت المكارم كلها لديه ، وأيقنت أن معرفتها هذا السعيد بمزاياه العظيمة ، هو أعظم الآثار التي كانت تتشوف إليها من لدن العناية المرجوة .

الآن وجدت محبة الفضائل والمحامد أعظم من تتجلى الفضائل والمحامد فيه فكيف ينفر منه قلبها ؟ بل كيف لا يميل إليه فؤادها ؟ فالأمانة هو ذلك الشهير فيها ، وقد سبرته في متجرفا فربحت بواسطته أضافا . والشجاعة هو المنشأ فيها على يد عظيم الهمة أبي طالب . والنباهة هو الذي تسطع في حياه طوالمها . والحكمة هو الذي تقرأ في سيماء آياتها . والعفة هو ربها ، والمروءة هو مجمع شواردها . ومحاسن الخلقة هو النسخة الصحيحة منها .

(١) اي فيما كانت روحها حائمة عليه . ومن العجب غنور قلم الكاتب بهذه

العبارة ثم سكوتنا له عنها

فأيّ الفضل تنشد بعد هذا حبة الفضل . وأيّ المحامد تريد بعد هذه مريدة المحامد ؛ كمال خلق وكمال خلق . جمال شخص وجمال نفس ، حنكة لم يظفر بمثلها أقرانه من الشبان . ووقار لم يحظ بأقله الكبار . وهمة لا تقف أمامها الصعاب . وعزيمة لا تنني أمام الثقال . قوي شديد . حلیم رشيد . كما يقول فيه عمه أبو طالب وهو به جدير :

فمن مثله في الناس أي مؤمل اذا قلته الحكم عند التفاضل ؛
 حلیم رشيد عادل غير طائش يوالي إلهماً عنه ليس بغافل
 لقد علموا أن ابننا لا مكذب لدينا ولا يُعنى بقول الأباطل
 فأصبح فينا أحمد في أرومة تقصر عنه سورة المتطاول

فما أكثر غبطة السيدة « خديجة » إذ عرفت هذا السيد الجليل ! وما كان أجدرها بأن يتعلق قلبها الطاهر به ! وما أقوى نور فراستها إذ علمت أنه لا نظير له ! وأن سعادتها لا تتم إلا به ! وما أحقها أن تعتم النعمة وتسبق إلى تزوج هذا الشريف الذي جمع إلى شرف النسب شرف الخلال (١)

(١) ما يدل على أن أمها في نبوته كان عظيماً مارواه الفاكهي في تاريخ مكة من حديث أنس وهو الخبر الوحيد الذي روي في حبها الشريف للكمال الأعلى في شخص محمد (ص) ولو اطلع عليه المؤلف لا ورده وهذا نصه :

روي الفاكهي في تاريخ مكة عن أنس أن النبي (ص) كان عند أبي طالب فاستأذنه أن يتوجه إلى خديجة فأذن له وبعث بعده جارية يقال لها نعمة ، فقال انظري ما تقول له خديجة ، قالت نعمة فرأيت عجيباً ما هو إلا أن سمعت به خديجة فخرجت إلى الباب فأخذت بيده فضمتها إلى صدرها ونحرتها ، ثم قالت بأبي أنت وأمي والله ما فعل هذا لشيء ولكني أرجو أن تكون أنت النبي الذي ستبعث ، فإن تكن هو فأعرف حقاً ومنزلي ، وادع الإله الذي يبعثك لي . قالت فقال لها « أين كنت أنا هو قد اصطنعت عندي ما لأضيقه أبداً ، وإن يكن غيري فإن الإله الذي تصنعين هذا لأجله لا يضيقك أبداً » ويؤيد هذا ما ورد في كيفية بدء الوحي في الصحيح وهو أن خديجة

الفصل الثاني عشر

تفاؤل هزأ وقت

كانت الكهانة شائعة في ذلك الزمان كما هو شأنها في كل الأزمنة إلى زماننا هذا، وكان علماء التوراة ينبئون دائماً بظهور نبي منتظر وبعضهم كان يقول إنه سيظهر من العرب. والراهب بختيار تفرس في ابن أخي أبي طالب إذ كان معه صميراً وقال له : سيكون لابن أخيك هذا شأن . ولم يكن بعيداً عن المألوف أن يخبر بعض الناس بالمغيبات ولكن لم يكونوا يصدقون كل شيء من هذا القبيل ولا يكذبون كل شيء كما هو الشأن في أهل زماننا أيضاً

وقد كثر التكهن قبيل ظهور النبي (ص) ولكن أكثر الناس لم يكونوا يبالون بتلك الاخبار لأنهم تعودوا أن يروا شيئاً من كذب الكهانة مع مصادفة صدقها أحياناً فلم تكن الثقة بها في الحقيقة تامة ولا سيما في الأمور العظيمة

قالت له حين خاف على نفسه عاقبة ما أصابه من الجهد ، عند ما ظهر له الملك « كلا والله ما يخزيك الله أبداً ، انك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق » وكذا ما ثبت من أنها كانت تعد له الزاد ليقطع إلى التحدث في غار حراء . وروى الواقدي بسنده إلى نفيسة بنت أمية اخت يعلى قالت كانت خديجة امرأة شريفة جلدة كثيرة المال . ولما تأملت كان كل شريف من قر يشي يتمنى ان يتزوجها فلما سافر النبي (ص) في تجارتها ورجع بريح وافر رغبت فيه وأرسلتني دسبسا اليه فقلت له ما عنده ان تزوج ؟ فقال « ما في يدي شيء » فقلت فان كفيت ودعيت الى المال والجمال والكفاءة ؟ قال « ومن ؟ » قالت : خديجة ، فأجاب

وبينما نساء من قريش مجتمعات في عيدلهن في الجاهلية إذ تمثل لهن رجل فلما قرب نادى بأعلى صوته يانساء أهل مكة سيكون في بلدكن نبي يقال له أحمد فمن استطاعت منكن أن تكون زوجا له فلتنعل . فكذبته ورمينه بالحصى وكانت فيهن « خديجة » فلم ترمه كما رمينه

لم يكن هذا النبيء كاهنا معروفا فلذلك احتقره النساء لانهن لا يعبان في الغالب إلا بأهل الشهرة . ولكن كان قومه ينعتقدون بالهاتف وهو على اعتقادهم روح ينطق بالشيء من حيث لا يرى أو يتمثل بصورة بشرية فيقول قولاً من هذا القبيل ثم يغيب ، فكان السيدة « خديجة » اعتقدت ان هذا المنادي هاتف فلم ترمه كما رماه ترائبها ولعلمها صدقت اذ ذاك وتفاءلت خيراً ورجت أن تكون صاحبة هذا الحظ

وان صح ظننا هذا بالسيدة كان لنا دليل جديد على عظيم تطلعها الى بركات الجنب القدسي فان الرغبة في تزوج المنعم عليهم بالنبوة لا تعظم إلا من العارفة بذلك الجنب الاعلى الذي يتفضل بخلة النبوة على من يشاء كانت النبوة معروفة عند قومها بما سمعوه من أخبار أنبياء جيرانهم بني إسرائيل ومعروف أن النبي رجل كالرجال ولكن يصطفيه الله ويرفع درجة نفسه على درجات سائر نفوس البشر حتى يطلمه على ما لم يطلم عليه أحداً من أسرار عالم الغيب . وليست النبوة ملكاً أو حظوظاً زائدة من نعم الدنيا بل جل الانبياء الذين سلفوا كانوا مقلين ولم يكن حظهم الا مقاومة الناس إياهم وتعذيبهم ، والنساء إنما يرغبن بالنعم والرفاهية ورغد العيش وكثرة الحلل والحلي ، وكل هذا لا يرجى لدى الانبياء الذين تنصرف أنظارهم عن متاع الغرور ويلتفتون الى ما فيه غبطة الروح فلا تتصور السعادة

من النساء عند الانبياء الا اللاتي أنعم الله عليهن بسلامة الفطرة وقوة الاستعداد كالسيدة « خديجة »

ولما رجع عندها « ميسرة » من الشام في تلك السفرة التي ذهب بها مع الهاشمي « محمد » أخبرها بأحوال غريبة رآها منه لا يكون أمثالها إلا لمن سمعت أخبارهم من الصالحين المباركين فما لبث أن رن في قلبها صدى ذلك الصوت الذي سمعته بانها ، صوت ذلك المنادي في النساء المجتمعات اللاتي كانت معهن في العيد : وكان هذا الصدى الذي رن في قلبها تتألف منه هذه الكلمات

﴿ تفاؤل هذا وقته ﴾

الفصل الثالث عشر

الخواطر في قلب خديجة

كانت (خديجة) تعرف أن ليست النبوة بالكسب والاجتهاد وانما هي محض عطاء واختصاص من الحي الازلي الدائم ولكن كانت تعيد على خواطرها ما حكاها عندها (ميسرة) ويرن على أثره ذلك الصدى في قلبها فتقول في نفسها أي مانع يمنع رجائي بفضل الله بأن أكون صاحبة الحظ من الرجل المبارك الذي أنبأ به الهاتف ؟ أي مانع يمنع فضل الله عن قومي اذا أراد أن يخرج منهم ذلك الانسان الذي يقول عنه علماء التوراة وكان لها ابن عم من جملة علماء هذا الكتاب

ثم اذا مر بقلبي خاطر آخر يقطع عايني هذه الآمال وينهاها عن هذه الاحلام — التي كانت تراها في اليقظة — ترجع إلى الشيء المحقق

الذي لا ينازع فيه خاطر ولا يماري فيه حجبى وهو ما تحلى به ابن عبد الله من صفات الكمال . فتمثل في أفكارها تلك الطلعة السنية ويلمع أمامها برق من تلك العينين الدعجوين . وتنسى الشمس وسائر الدراري حين تذكر دائرة ذلك الوجه المتألق . ويقوى إيمانها بالملائكة إذ ترى في هذا الشخص البشري آيات القدس والظاهرة . فتقول في نفسها أفايس حسبي أن أكون ربة النصيب من فتى قريش الوحيد الذي كمله الله إن لم أكن صاحبة الحظ من الصالح الذي أنبأ به الهاتف

ثم تتراجع إليها الخواطر وبقلبها ذلك الحب الشريف الذي نمت حبه في قلبها على ضروب من الحيرة فتقول في نفسها مرة أخرى : من لي بهذا المكمل الذي مال إليه قلبي ، وحامت حوله خواطري . وعكفت في دائرة محاسنه نفسي ؛ أليست تمنع العادات بأن أكون أنا الخاطبة ؛ أفالعادات ما أثقل أحكامها ، وما أظلم قضاءها . وما أشد عتمة مسالكها . وما أسوأ عواقب الجود عليها ، وما أبخس صفقة الذين لا يتزحزون عنها !

نعم نعم أف للعادات فكم أوقفت بعض الاجيال في سجون ضيقة مظلمة من التقليد الضار . وحجبت عنهم أنوار التبصر والتدبر والتفكير فانطمست عليهم سبل الارتقاء في معارج الاستحسان والتحسين . وغمت عليهم مطالع السعادة الحقيقية للنفوس

أف ثم أف للعادات فهي قاطعة الطريق على نتائج العقول تزج بها في مهاوي العدم . أو تذرهما في سجن أقفر ممنوع عنها كل ما يربها . وياعجباً لبني آدم الذين يضعون العادة في هذا المكان من الحكم على نفوسهم والقضاء على عقولهم وقلوبهم ، أليس لهم ما يذكرهم بأن العادة من صنعة

أيديهم وتصوير أعلامهم، أليس لهم ما يبصرهم بأن العادة يجب أن تكون تابعة لامتبوعة، ومنقادة لاقائدة، حتى إذا فتحت أمام بصائرهم أبواب آخر لما هو خير ودعوا عادتهم تلك محمودة على قدر ما نفعت، ومذمومة على ما أضررت، استقبلوا أخرى مصاحبيها على مقدار ما يدوم من أسبابها، وينفع من أبوابها

تبرمت « خديجة » بالعادة كثيراً، وتأفقت من تقابلها طويلاً، وسردت كل سببئات الجمود عليها في نفسها التي هي أعلى من نفوس الغافلين عن المقدمات والنتائج. لما خصها الله من سلامة الفطرة، وفضل الفطنة، وقوة آلة المعرفة، ومزيد حرارة الهمة.

ثم عادت تعذر الضعفاء الذين لا يستطيعون التغلب على الثابت الراسخ وهم الأكثرون وتذكرت أسباب رسوخ بعض العادات ومنها وفرة فوائدها في أوقات سلفت، وأحوال مضت، ورأت أن الناس يرون من السالفين كل شيء ولا يميلون إلى التغيير حتى يميل بهم الدهر، ميلة شديدة على يد عاصف من الحوادث، أو هبة شديدة من ارادة بعض الأشخاص. ولم دكت الارادات القوية أطواداً من العادات

ربما كانت هذه السيدة تستطيع التغلب على العادة فلا تجد بأساً بأن تخاطبها بنفسها لأنها كانت قوية الارادة. ولكن من لها بأنه لا يرد خطبتها وهي أرملة في الأربعين من العمر وهو في الخامسة والعشرين يشف محياد عن ماء الفتوة، وينشر شذى الشباب، والمرأة معها قويات ارادتها تذكر الخيبة فيغاب إحجامها إقدامها وهذا بعض أسباب العادة في أن تكون هي الخطوبة ما أصعب الخواطر على المرأة التي تجدد ضالتها من السعادة ولا

تستطيع الاقدام على تحصيلها ! هي صعبة على الرجل أيضاً ولكنها على المرأة أصعب لأنها أضعف على كل حال . بيد أن ضعفها الذي زينها الله به في عين الرجل به تمت نعمتها وعلت كرامتها لديه . ففوة الخفر والحياء من ضعفها ، وذلك أعظم حلية طبيعية تزدان بها ، ومن عطل من هذه الحلية منهم رغب عنها الكرام من الرجال . وشدة الرحمة من ضعفها وما أعلی وأجمل وأزين هذا الضعف الذي بدونه تمت المرأة . والجبن من ضعفها ولولاه لما حصل الاعتدال في اقتسام الاعمال بينها وبين الرجل

فماذا تصنع قوة ارادة السيدة « خديجة » أمام شدة خفرها وحيائها ، وماذا تنفع شجاعتها أمام خشيتها من الخيبة ، وماذا تجدي قوة عزيمتها وصبرها عند المزعجات من خواطر الحب الشريف الذي ملأ قلبها الطاهر بعد أن كان حبة صغيرة ألقيت فيه

اللهم رحماك فليست القلوب من حديد ، ولم تقدم من صخر ، إن نسيم الخواطر فيها يصدع إن جاءها برائحة اليأس ، ويرأب إن أتاه برائحة الرجاء ، وكذلك كانت خواطر السيدة « خديجة » صادعة ورائثة ، بيد أن رجاءها كان أغلب ، ولو كشف لها الغطاء عما يحف بها من السعادة المغيبة عنها إذ ذاك لانتقلب رجاؤها يقيناً ، ولكن لتستكمل الغرائز حظها من النفوس كتب على الانسان أن يغيب عنه آتیه من السعادة والشقاء فترى منحوساً يضحك ويلعب والشقاء يساوره عما قريب يأخذه بيانا ، أو يصبحه وساء صباحا . وترى مسعوداً يتملأ ويمسي ويصبح على مضاجع الحيرة والارق واجما سادما والسعادة من حوله مرفوعة بأجنحتها ستقف عما قريب على رأسه وتشمله ويتبارك بها بيته

فما أشد حاجة هذه السيدة السعيدة في مواقف حيرتها تلك إلى هاتف يبشرها بقرب اتصال السمادة الثامنة بها ، ما أشد حاجتها إلى من ينبئها بأنها هي الجوهرة النفيسة التي أتممت لذلك الذي يزيته العناية الازلية أكمل تمييز . ولكن ليظهر مزيد فضائها في الميل إلى رب الفضائل والمكارم التي لا تبارى حجب عنها كل هاتف وحبست عنها البشري حتى أخذت الخواطر حظها من قلبها الكريم ، وتمكن منه كل التمكن ذلك الحب الشريف ، لذلك الذي أجمعت فيما بعد قلوب الملايين التي لا تحصى على حبه

الفصل الرابع عشر

الزواج

لا بدع اذا قلب الشوق نفوس المحبين في يد الخواطر كالكرة بيد اللاعب فان قوام الكائنات بشوق ذراتها بعضها إلى بعض ، وكان جديراً أن يتجلى هذا المعنى بزيادة في غريزة خليفه الله في الارض زمي الانسان كيلا يكون بنو آدم وحواء أنقص من الجمادات حظا في هذا الناموس الكبير الفائدة .

فبعد أن تمكن من « خديجة » الشوق الشريف هذا التمكن أصبحت جديرة أن تتناول هدية سعادتها ، وتنكشف لها الحجب عن الرحمة التي ترعاها ، فهبط على قلبها خاطر جديد كان به الوصول الى النعمة الجديدة خطر لها ان تبعث الى الذي سكنت مكارمه ومعاليه فؤادها رسولا تسهر به رغبته وتستنبيء به سعدا مما ينزل على قلبه من الالهام بهذا الشأن ، وساقها الى هذا الخاطر قوة رجائها بالله سبحانه وحسن ظنها بان هذا

المكمل لا يرد رغبة مثلاً وهي الجامعة لصنوف من المعالي يقل اجتماعها في سواها كانت لها صديقة اسمها (نفيسة) (وهي أخت يعلى بن أمية) فقصت عليها حديثها وأتممتها على هذه الرسالة ولم يكن بالصعب أن تؤدي الصديقة هذه الأمانة لأنها ستتكلم كأنها صاحبة رأي تشير به حتى إذا وجدت مجالاً كانت وكيلة بأبداء القبول

لم تكن النسوة إذ ذاك محتجبات ولم يكن ممنوعات من مكالمة الرجال فلم تكن رسول (خديجة) محتاجة إلا لشيء من قوة الجنان أمام ذلك المهيّب العظيم وقد أمدت من سعد مرسلاتها بحظ منه

ومن يكن راعيه السعد فنقل ما شئت في تيسير ما يرجوه

جاءت (نفيسة) هذه ابن عبدالله وفي القبيلة الواحدة يعرف الناس بعضهم بعضاً فقالت له ما يمنعك أن تزوج ؟ فاعتذرها بقلّة المال اللازم للقيام بشؤون العائلة قالت له فإن كفيت ودعيت إلى المال والجمال والكفاة قال لها ومن ؟ قالت له (خديجة)

قالت هذه الكلمة وصمتت تنتظر ما سيبدو منه . وأحدث هذا الكلام حركة في فؤاده وبأي شيء يتحدث ذلك الفؤاد الطاهر حينئذ إلا بقوله : خديجة الشريفة المعروفة بالطاهرة ، هي المناسبة ، هي الموافقة ، هي الصالحة ، اذهبي يا نفيسة فاني سأخطبها

فرجعت تحمل هذه البشرى وكانت ميمونة النقيية في هذه الرسالة . فآله يعلم كيف أجزلت السيدة خديجة كرامتها ، ولم تنتظر كثيراً حتى أتى خاطباً ومعه عمه حمزة فقال عمها عمرو بن أسد بن عبد العزي « هو الفحل لا يقدر أنه » وهو مثل عربي يقال للكفو الذي لا يرد إن خطب

ما كان هذا الخاطب الكفو غنياً اذ ذاك ولكنه لم يكن أيضاً معدماً فهو من آل عبد المطلب العامرة ببوتهم بقري الضيفان واغاة اللهفان ففي هذا السبيل تذهب أموالهم ثم يخلف الله عليهم من وجوه المكاسب وأبواب المراج بما أوتوا من الصم والشم ولم يكن اعتذاره ذلك اعتذار المدمين وانما هو اعتذار المتربص أن يتوفر له مقداراً كبير . فمع قلة ماله في ذلك الحين أصدقها عشرين بكرة لان اعطاء الرجل للمرأة صداقاً سنة عربية لم يكن ليحسن تركها

والزواج العربي ليس محتاجاً الى رؤساء ديانات ، ولا تلاوة الرؤساء صلوات . بل هو عقد كسائر العقود المدنية يتوثق برضا المرأة وأوليائها ورضا الرجل . فبخطبة من الرجل وتقديمه الصداق واجابة من المرأة وأوليائها تصبح المرأة زوجة شرعية للخطاب . وهكذا أصبحت (خديجة) الطاهرة زوجة (محمد الامين) بكلمة أعلنها عمها عمرو بن أسد فما أعظمها من كلمة جمعت بين القمرين !

الفصل الخامس

بيت فريجة بعد الزواج

وبدأت السيدة «خديجة» بعد هذا القران السعيد تزداد معرفة بهذا الجوهر الكريم الذي أتاحه الله لها فألقت الى يدها الامين بكل ما تملك ولم يرعها أن الكرم المستحكم في سجاياه سيحمله على اخراج نصيب كبير من هذا المال الى الضعيف والمائل فان سيدتنا لم تكن — مع تدبيرها — بالشجيعة الحاذقة على المال الداني بل كانت قد خلعت لتكون مساندة على

الجود وهل بعد معرفتها بهذا الكفو الشريف ترى لنفسها معه أمراً ينافي أمره ، أو رأياً ينافي رأيه ، وهي تلك العاقلة الحكيمة المستعدة ان ترداد كمالاً كلما أشرق لها من سماء الفيض الآهني نور منه وأصبح هذا البيت مثابة للمضطرين وأماناً ، فقصدته الايام ، وشبعت فيه اليتامى ، وخففت فيه أحمال كثيرين ممن حنيت ظهورهم بكثرة الآل ، وقلة المال .

كانت تلك البلاد احياناً تصاب بعسر بل كل بلاد العالم لا تسلم من العسر على الدوام فمساعدة الموسرين في زمن العسر للمعسرين أمر تقتضي به الانسانية لكن قليل من الناس من يكون لهم حظ بالتغلب على شياطين الشكوك والاهام التي تنهى عن الاتفاق خشية الاملاق ، وأما سيدتنا فكانت ترى إتفاق زوجها ومساعدته للمعسرين وأخذ به العائلين من جملة المزايا العالية التي تقر بها عينها

وفي احدى الازمات كانت ملائكة الرحمة تحوم في ذلك البيت حول أحد الصبيان وتطوف في آفاق نفسه لتطهرها من كل شر حتى لا يخرج من هذا البيت الا وهو امام للناس في الخير والصلاح وكان هو لاهياً عما أعد له ، وعابثاً بمثل ما يعبت به أترابه ، ولم يكن هذا الصبي يتما بل كان أبوه حياً ولكن أبناء السعادة - أبناء المجد الابدي - أبناء المجد السرمدي - تستأثر العناية الازلية بكمالهم وتريتهم بصورة خاصة وظاهرة يراها من استعدت بصائرهم للاطلاع الجيد

لم يكن أبو هذا الصبي ليسمح وهو حي أن يتربى كالايتام في غير بيته لانه هو ذلك الشهم الشهير والشريف الخطير «أبو طالب» ولكن اشتداد

الأزمة في إحدى السنين اضطره أن يقبل رجاء أخيه « العباس » وابن أخيه « محمد الأمين » بأن يأخذ كل واحد منهما ولداً من أولاده تخفيفاً عنه فكان هذا الاسعد الذي أخذه الأمين هو علي الذي صار الامام أبا الائمة ، وبدر سماء السيادة في الامة

كانت تربية علي في هذا البيت من جملة المكتوب بالسيدة « خديجة » من حسن الحظ فان الغيب كان يعده لامر جليل له علاقة بهذا البيت لعلمه لم يخطر في بال أهل هذا البيت اذ ذاك أن هذا الصبي الذي يدرج أمامهم فيسرون به سيكون الواسطة الوحيدة لحفظ نسلهم . ومن أين كانت تعرف السيدة « خديجة » أنه لا يعيش لها من الذكور ولد وأن هذا الصبي الصغير قد أعده الغيب ختما كريماً وبعلاصالحا لبنتها الصغيرة . وكيف تعلم أنه لا يتسلسل لها عقب إلا من تلك الكريمة فاطمة الزهراء ؟ وإلى يخطر في بالها أنها انما كانت تربي هي وزوجها جداً لعترة تتصل بهذا البيت سيدها العالم من أشرف العتر وستبقى مباركة في الارض دهوراً طويلة عالية المنار ، عظيمة الشأن ،

نعم كل ذلك لم يخطر في البال اذ ذاك ولم يكن الذي في القلب الا القيام بالواجب الذي يقضي به التضامن

نعم ! نعم ! كل ذلك لم يخطر في البال ولا نوى سيد هذا البيت مكافأة عمه على تربيته التي سبقت له فان بين ذوي القربى لا توجد المكافأة بل يوجد التضامن ، ولكن كان هذا البيت المملوء نعماً يتقاضى وجود نفوس كثيرة تشاركه في تلك النعم ، لأن لأهله نفوساً لا تعرف الاستئثار ، بل تراه من العار والشنار ، لاسيما اذا بئس الجار

وقد استفاد من مادة هذا البيت كثيرون كما أشرنا اليه أما علي فأنما خصصناه بالذكر ليعرف من عرفه أو سمع بمناقبه العالية وفضائله الزاكية كيف كان هذا البيت السعيد مسعداً للارواح ، كما كان مسعداً للشباب ، وليعرف القاريء بسهولة أن البيت الذي أخذ ابن أبي طالب آدابه فيه منذ كان صبياً قد كان مهدياً لا شرم الآداب وأعلاها ، فإن دليلاً المرتضى هو من عرفه العالم كله ، هو ذلك الامام الأكبر الخليق أن يكون مثال القدس وزكاء النفس ، هو مجمع المعالي وملقى الاسرار العظمى ومظهر الولاية الكبرى فما أكرم هذا البيت السعيد وما أعظم بركاته ! قد رأينا الامين يجد فيه مجالاً للتخفيف عن المثقلين ، والتنفيس عن المكروبين ، وفيه وجد القصاد صدوراً رحبة ، وأيدياً مبسوطة ، ولديه خيم الجود والسخاء ، كما خيم العدل والوفاء ، ومنه أشرقت الآداب العالية ، والتربية الكاملة ، وماذا نرى من بركات هذا البيت بعد ذلك ياترى ؟

الفصل السادس عشر

(العمل الروحي)

أشرفنا الآن على بحر كثيرة لججه صعبة مسالكه ، وصلنا الى ساحل هذا البحر ولا بد من جوزه وأكثر السفن لا يوثق بها في غمراته ، ولا بسو ثوب الهداية رأس ما لهم الدعوى ، وما حيلة الخائرين غير الرجوع الى الله في الجهر والنجوى ؟

ههنا نبأ جليل تحار العقول المستقلة بفهمه ، وتشتاق أن تقف على روحه وحدّه ورسمه ، هنا قد باننا من سيرة هذه السيدة الجليلة أن بها كان من

دأبه أن يتعبد بعض الاوقات في غار من جبل قرب مكة اسمه حراء فما هذا التعبد، وكيف هو؟ وما الذي ساق نفسه اليه؟ وأي دين فرضه عليه؟ هذا هو النبأ العظيم الذي تتمسك بنا العقول المستقلة اذ تسمعه ولا تدعنا نجوزه الى غيره من غير أن نوضحه، واذا أخذنا بإيضاحه نخشى أن نبعد بالقاريء عن سياق السيرة ولكن يقوي عزمنا على هذا الايضاح ظننا بأن الراوي الذي يشرح كل دقيقة فيما يمر به من حكايته قد يفيد القراء أكثر ممن يسرد الاخبار سردا

إن الاديان كلها رسمت أعمالا اسمها عبادات ولكن بعن السيدة « خديجة » لم يكن تابها اذ ذاك لدين لأن دين قومها كانت عبادته عبارة عن تمجيد بعض الاحجار التي هي عندهم تماثيل أشخاص مقدسين ولم يكن هو قد تعود هذه العبادة التي لهم

العبادة التي عرفت في الاديان كلها بحسب الظاهر أعمال وحركات يرسمها رؤساء الدين من أنبياء وغيرهم، أما لبها فأشواق روحية تقوم في نفس العابد أمام معبوده ويصح أن نسميها عملا روحيا حينئذ

كان بعن هذه السيدة يأتي في غار حراء بعمل روحي تتوجه فيه روحه تلقاء باري السموات والارض ومشرف مكة وسائق نفوس العرب إذ ذاك اليها، ولم يكن مقاما أعمالا رسمية

إن البحث عن سبب تسمية تلك الاعمال الرسمية عبادة في لغتنا يكلفه مشرح اللغة، والبحث عن أسباب اختيار الاقوام السانفين هذه الصور والاعمال المخصوصة تحت اسم العبادة يكلفه مشرح التاريخ، وأما البحث عن الاشواق الروحية أو التعبد المحمدي في « حراء »

ثم يكلف به كاتب سيرة السيدة « خديجة »

العبارة لا تشفى الصدر في تجلية هذه المعاني ولكن شدة ارتباط هذا الموضوع بهذه السيرة دائية الى السير في هذا البحر العظيم قد سمعنا في سيرة زوج هذه السيدة أن روحه كانت من أعلى الارواح ونحن نؤمن بهذا ولكن اذا نحن لم نتعرف بالروح ولو قليلا فماذا يكون معنى ايماننا بهذا ؟ لا جرم أن تعرفنا بالروح ضروري في هذه المقامات وهو أمر يشتهي كل امرئ لان كل واحد منا تنظر في بآله هذه المسألة :

مانحن ؟

هذا سؤال قد علم الذين بعد نظرهم في ماضي البشر أنه من جملة فضل الله عليهم، وهو أساس ما يسمى في لغتنا دينا وديانة وملة ، وأحد الاصول والاسباب في ترقى هذا النوع الانساني وتكمله

هذا سؤال تحيط به محارة طال وقوف العقل فيها . ههنا مرسى سفينة العقل الذي يحاول معرفة نفسه ومنها يتبدى مجراه لأجل إدراك هذا الجوهر

مواقف الباحثين كادت تتساوى أمام صعوبة هذا السؤال اذ لا براهين عقلية قطعية في نفي شيء أو اثبات شيء في جوابه . ولكن اذا عزت هذه البراهين لا يعدم عشاق هذا المطلوب آيات كثيرة في الوجودات ، ومن فضل الله على أهل هذه الصورة البشرية جعل قلوبهم مستعدة لقبول ما تأتي به هذه الآيات من ضياء ، ولا يحرمه الا قليل ترمز فيهم الحيرة لاسباب محسوسة وغير محسوسة

هذه الوجودات قد ملئت آيات فإذا حالت دونها الحجب لج العقل في محارات أو عمايات ، وإذا بدت لا يحجبها حاجب نهج في هدايات ، انها لمن تأمل مراتب وصفوف . ولكل وجود قوة ولكل قوة أثر . واختلاف القوى وآثارها ، هو على مقدار أشكال الوجودات وصورها وحيزها ، ولما رزق الانسان هذا النطق الواسع وضع أسماء لكل ملاح له من وجود وظن المسكين أنه بوضع الاسماء أحاط بالحقائق وهي لم ترده عنها إلا بعدا الانسان بعض هذه الوجودات وفيه قوى تحتاج حسب عاداته الى أسماء ، فالروح للانسان اسم للقوة العظمى التي فيه ، اسم لما يكون به الانسان مستقلا متميزا يقول أنا ويقال عنه هو وان عفا أثره

آمن الناس بهذا الاسم متفقين ولكن فيما يدل عليه قد اشدت تباينهم وحر نظرم في ادراك حقائق هذه القوى التي في الانسان وفي كيفية علاقتها بهذا الجسم البشري الذي متى برحته أصبح لا فرق بينه وبين كثير من صفوف الجمادات والذي يزيد حيرتهم شدة تسامي بعض الارواح كروح من سعدت بقربه سيدتنا صاحبة هذه السيرة

بحثت كالباحثين ، وحررت كالحائرين ، ثم وجدت كالواجدين ، فما أذهبا على القلب من حيرة عقباها بلوغ الغاية والحمد لله رب العالمين اليك حديث نفسي بشأنها : أفقت اليوم من النوم ونصل حسي وشعوري من غلافه ، كما نصل هذا الفجر من غمده ، فوجدتني كأنني وليد هذه الساعة ، لانني قبل هذه اللحظة لم أكن أرى هذه الاكوان ، ولم احس بما فيها من الاصوات والالوان ، ولم اكن أشعر بملائماتي ومؤلماتي . فكأنني كنت غير هذا الوجود الجديد .

أين كانت لذتي بروية هذه القبة وأنسي بما على هذا البساط؟ وأني
كان ابتهاجي بزواهر هذه الزرقاء ، وزواجر هذه الغبراء ... ومن حولي
الآن أغاني طيور ، ورقص غصون ، واريح زهور ، وبدائع نقوش ،
وترتيب صنوف ، وحرركات نور ، وتجليات سكون ، وفي أنا آثار انفعال
من كل هذا قد تحرك بها ما اسمه فكري ثم تحرك بها ما اسمه لساني
فسمعتني أقول (سبحانك ربنا ما خلقت هذا باطلا)

سبحانك يا فاطر يا باريء يا مصور ولك الحمد ! أنا متذكر الآن أنني
أبصرت هذه المراثي ، وسمعت هذه الامالي امس لما بزغ الفجر بزوغه
هذا فأين ذهب إبصاري وسمعي بين ذينك الابصار والسمع اللذين كانا
أمس وبين هذين الابصار والسمع اللذين آتياي الآن ؟ وأنا متذكر أن
هذا الامر وقع لي مرارا كثيرة الوفا من المرات فما هذا الاحتجاب ثم
الظهور ، وأين كان الاحساس محتجبا قبل أن عرفته أول مرة ؟

رباه ! من اسائل عن هذا .. ؟ ان هذه الصوامت التي من حولي لا تجيب !
لعلها لا تسمعني ، أو لعلها لا أسمعها ، أو لعلها لا ذكر لها في هذه المسائل ،
وكيف أصبر على جهلي بشي ، يتعلق بي ، وكيف لا أبحث عن اصل احساسني
وعن احتجابه ؟ ألا يهمني أن أعرف هل أمره كأمر هذه الشجيرات يتحات .
ورقها ثم يعود ثم تبيس مرة واحدة فتصير حطبا ثم رمادا ؟ أم أمره كأمر
هذه الشمس يظهر نورها على جهة ثم يغيب عنها ثم يعود اليها وهو لا يزال أبدا ؟
كيف أقنع للنفس الانسانية بحالة هذه الشجيرات وهي لها من الخواص
والآثار ما ليس لشيء غيرها في هذه الارض ؟ كلا سأسائل ثم كلا سأسائل !

رفعت رأسي الى السماء فألفيت بواهر ولا مجيب ، وأهويت به الى الارض فألفيت بواهر ولا مجيب !

فضاء أمامي . لا أعرف له ساحلا وحدًا ، تارة يفيض نورا ، واخرى يحتجب بالظلمات ، أراني وأرضي محمولين فيه ولا أعرف من هذا المتن العظيم الا اسماء وضعوها له لا تشرح كتبها ولا تؤذن بدلالة كافية تتلاعب فيه النسمات لعلها ناسية أن الامر جد ، وما هو بالهزل واللعب ، وتتناغى فيه الاصوات كأنها تحسب ان في كل موجود دماغا يأخذ بحظ منها ولعل حسابها خائب !

يبني وبين كل ما هو محمول في الفضاء مثلي علاقة قد عرفتها بهذا النور البازغ ، فهل بزغ هذا النور لا عرفها أم تعرفني ؟ وهل كانت لي أم كنت لها ام كنا جميعا لهذا النور أم كان هو لنا ؟ ولكنني أعرف يا نور انه لولاك لما عرفت شيئا سلام عليك ايها النور ! يا حامل انعمة المعرفة الينا ، وشكرا لمن تيسر ايها النور بجلاله ، وتهدينا الى آيات جماله

بالنور عرفت ما عرفت ولكن لست ادري كيف عرفت ، قد تنقشت السموات والارض على عظمتها في لوح لا يكاد يحس في دماغي ، فهذا اليم الذي يعجب الآن أمام غرفتي اصبح لاشيء عندي على الساعة لانه محدود وهذه الشمس العظيمة التي بدأت تبزغ هذه الساعة قد غدت صغيرة في عيني لانني احطت بها ، وهذه الارض التي اراها كسريري قد تلاشت في نظري : اذ وجدت اهي وكل بحورها ذرة طافية في ذلك اليم الذي لا ساحل له ، ادركت في هذه الساعة أن هذه الاشياء كلها هما عظم حجمها

فهي كالصفر بالنسبة الى مالا يتناهى ، فعلمت ان ليس فيما أحاط به حسي ما يدفع عن فكري عطشته

راقني جمال هذه البكائنات ثم حيرني منها انها كلها مسخرة لنا وما نحن لها بمسخرين فهل نحن على صغر حجمنا اكرم معنى منها ؟

ترككت حيرتي ههنا والنفت الى هذه الشجيرات التي اراها تتزين كعرائس الانس وسألتها فلم تجب اولم افهم حفيفها ، وانثيت الى هذه الهمامات الراقصة باعناقها فسألتها فلم تجب اولم افهم هديلها ، لكنني استأنست بهذه وتلك اكثر من استئناسي بالمتحجرات لاشوق يخالط منها الجنان ، ولا حركة لها الا على يد الانسان ، وطال أنسي بهذه الخضر المترنحات ، والورق المتغنيات ، حتى كدت أفنقه حديثها ، وأفسر تبيانها ، هذه ذكرتي بمعنى الحياة وأعادتي الى نفسي وهي ضالتي المنشودة وبها الهدى الى ما أنشده

لم أجد غير نفسي يحيدني عن نفسي بعد أن ساح حسي وفكري في هذه العوالم المحدودة . . إياها ناجيت ، وكلامها وعيت ، فهي التي حدثتني أنني لست الا ذرة صغيرة جداً سابحة في هذا الفلك ، وفي هذه الذرة الصغيرة ذرات كثيرة كل واحدة منها بالنسبة الى الذرة الجامعة هي كواحد من ألوف ألوف الألوف ، وفي كل واحدة توجد الحياة ولكن ليست كلها مركزاً للحياة لاننا نجد أن ألوف ألوف ألوف من هذه اذا أفسد وضعها لا تزول الحياة ولكن هناك بعض ذرات اذا أفسد وضعها تزول الحياة كلها من جميع هذه الذرات التي يتكون من مجموعها الجسم فهذه الذرات القليلة التي هذا شأنها هي مركز الحياة

أعظم مجالي الحياة في نظري هو الإدراك الفكري وهو قار في ذرات قليلة لا يحاط بها

أدهشني هذا الموقف الذي وصلت إليه ، وهذا المرأى الذي وقفت عليه . حيرني من هذه الذرات أن تسع صور السموات والارض وصور أعمال البشر منذ كانوا الى اليوم ، وحيرني منها أن هذه النتائج العظيمة التي تصدر عنها اما تصدر اذا كانت بوضعها المخصوص وما أسرع زوال هذه النتائج اذا اختل وضع الذرات

رأيت هذا الامر الجيب ولكن لا مستقر للفكر عنده هذا المرأى إذ قصر اه اني عرفت شيئاً صغيراً جداً يسمع أشياء لا تحصى مع أنني انما أبغى أن أعرف ماهو ذلك الشيء الصغير مبناه جداً جداً العظيم معناه جداً جداً ؟ ماهو ذلك الشيء الذي بوجوده على حالة مخصوصة يكون هذا الجسم متحركاً حساساً يحيط بالسموات والارض ، وبغيره يغدو هذا الجسم تراباً صامتاً صابراً تحت الاقدام ؟ ماهي تلك الحالة المخصوصة ؟ وما هو تغيرها وكيف نظامها ؟ هل هو في احاطته تلك تابع لهذا النظام أم النظام تابع له ؟ هل هو يحتاج إلى هذا النظام بعينه أم يستطيع أن يؤلف نظاماً آخر متى تغير نظامه هذا ؟ وإن كان تابعاً لهذا النظام بعينه فهل وجدت هذه الصبغة لتزول بأسرع من لمح البصر بالنسبة إلى عمر غيرها على ما يتخلل وجودها من الاحتجابات ، محارات بعد محارات ، ولكن تلوح خلالها آيات ، إذ قدملاً نارب الوجود أمثالا ، وأتاحت لنا معرفتنا بالامثال أن حقائق الاشياء محتجبة والظاهر انما هو آثارها : فهذا النور الذي يملأ الفضاء لانعلم كنهه ، وهذه الشمس وما حولها لا ندري كيف قامت ، قصارانا أناعرفنا سببها

في هذا الفضاء . لا يسندها عمد . ولا يعترها سكون . وهي مع ذلك
سائرة بنظام . ودائرة باحكام . لا تخرج عن مستقراتها ، ولا تحيد عن
مجاريها . ولكن ماهو ذلك السر الذي قامت به هذا المقام ؟ سمّوا شيئاً
من ذلك بالجازبية فهل هذه التسمية دالة على الكنه والحقيقة ؟

إن قصارى ما نعرفه من هذه المركبات أنها قابلة للتحلل فاذحللناها
انتهينا إلى عناصر قليل عددها لا تتحول ولا تتحلل هي الامهات . ثم هي
تنتهي إلى أم واحدة لا نعرف من أمرها شيئاً !

المشاهدة هي أكبر وسائل معرفتنا . ولكن آلهة هذه المشاهدة عاجزة
عن أن ترينا الاشياء كما هي ، ولو اقتصر الامر عليها لكانت دلو منا
بهذه الكوائن خطأ من أولها إلى آخرها

هذه الشمس التي نحن وأرضنا في نظامها الكبير أقل من حبة رمل في جبل
عظيم . ليست أمام المشاهدة الخصوصية لكل واحد منا إلا كمصباح بسيط
يشعل ساعات وينطفئ ساعات ، وما هي إلا بحجم كرة ثماليب بها اللاعبون
على هذه النسبة من الخطأ نرى كل شيء أقل من حجمه ودلي خلاف
وضعه ، فقد نرى واحداً وهو متعدد ، وبسيطاً وهو مركب ، وساكناً
وهو متحرك ، وصغيراً وهو كبير ، حتى نصل إلى ماهو صغير جداً فلا
نراه البتة كما دلتنا التجارب بعد أن اهتمدنا للآلات الصناعية التي تساعد
بواصرنا الطبيعية أيما مساعدة . بهذه الآلات استطعنا أن نرى أنواعاً من
الحيرانات كانت خافية على الابصار دهوراً دهاير . ولعلنا سنهتدي إلى
ما يرينا أصغر من تلك الصغائر ، ونحن في مثل هذه الهدايا العظيمة التي
جاءتنا هدية من الفاطر على يد التجارب لا نجد ما يمنعنا من الظن بأننا

• هما استعنا بالآلات نبتى في مشاهداتنا بعينين عن كشف الاشياء كما هي وتبقى أشياء كثيرة خافية على أبصارنا وآلاتنا مهما بلغنا بها

فما أكرمك يا عيني علي ! أنت أنت كنت سبب ارشادي إلى حقيقتي إذ لم تريها لاني عرفت بالتجربة أنك مسكينة عاجزة لآلآت كل شيء ولا ترين شيئاً مما ترينه على وضعه وحقيقته فاضطرت أن أقيس وجودي على وجود غيري ! لا جرم أن لي حقيقة مستترة عنك وراء وجودي الجسمي الذي تشاهدونه كما أن وراء النور حقائق مستترة ولا جرم أن حقيقتي هي سبب وجودي كما أن الحقائق المستترة وراء النور هي سبب وجوده

ان الحقيقة العظمى التي هي باطنة من وراء الاشياء كلها . وظاهرة عليها كلها ، هي حقيقة واجب الوجود ، حقيقة من لا بد لوجودنا من وجوده ، ولا بد لتشكلنا وتنوعنا من فيض تخصيصه وجوده ، هي حقيقة من له الحياة الازلية الابدية لان الحياة التي نعرفها عنه صدرت . وله العلم الازلي الابدي لان العلوم التي نعيدها من فضله أتت . وله الارادة الازلية الابدية لان الارادة التي نجدها من لدنه أهديت ، وله القدرة التامة الشاملة لان القدرة من عنده نشأت . . هي حقيقة من لا مثال له في كمال وجوده . وعنه صدرت أمثلة السكالم في الوجودات الظاهرة . . هي حقيقة الباريء المصور الذي برأ حقيقة مثال كمال حي سميع بصير . يريد وجمل حجاب هذا الهيكل البشري

أصبحت لا ارتاب في أن الحقيقة العظمى هي التي تهدينا بآثارها وبامداداتها الى كل شيء مما نعرفه . ولكن لشدة ظهورها الذي قديعادل المطهر ربما تخفى ، فإذ نطالب معرفة النفس تظهر آياتها العظمى . فبجنان الله

من عرف ربه فقد عرف نفسه ، ومن عرف نفسه فقد عرف ربه .
عرفت الآن من أمر نفسي أو روحي أنها لا يعرفكنها ولم يزدي
جهلي بكنها إلا إيماناً بحقيقتها الجلية المستقلة عن الجسد ، لأنني لم أعرف
من أمر كل جزء من أجزاء الجسد إلا مشابهته لهذه الجمادات التي أمانى
وليس فيما أمانى شيء يجمع فيه ما تجمعه هذه الروح . وقد حاولت كما
يفعله بعضهم أن أنسب هذه الخواص إلى المجموع المركب من هذه
المواد على نظام خاص فلم يسلس له فكري بل جمح عنه كثيراً لتذكره
النظام الشمسي وذهابه إلى أنه إنما قام بما يسمونه الجاذبية ولم تقم هي به .
فما نفسنا أو روحنا الجاذبية النوع وشهريائية الخصائص والمزايا ، وهي
هي مؤلفة الهياكل وناظمتها . لا بدع في ذلك فالكواكن كلها من أصل لا يرى
ولم تنفصل عنه ، ولا يكون الأصل تابعا للفرع ، ولا ضرورة لتغير الأصل
إذا تغير الفرع . ولا يصعب فهم هذا على من عرف كيف يتجسد ما لا يرى
فيصير مما يرى ، وكيف يتلطف ما يرى فيصير مما لا يرى . الصناعة بهذا
ضمنية ، والتجربة فيه هادية أمينة ، ولا يصعب أيضا على من عرف آيات
النفس التي تظهر في بعض الأشخاص لتتعلم بها أن لها شؤوناً غريبة جدا
فوق المهود منها والمألوف من دخولها في قيد الحس ، سبحانه الله كم لها من
انطلاق منه يظهر معه أن لا حاجة لها بهذه الآلات العضلية والعظمية والعصبية
نحن شاهدنا مع هذا كثيرا ، وشاهد مثلنا خلق لا يحدون ،
والباحثون المحققون شاهدوا أيضا أو نقل اليهم ثقات كثيرون مجموعهم
يدفع عن نفوسهم الريب ، وما علمنا أنهم وجدوا لهذا الامتياز الفائق
أسبابا جلية ! غاية ما صنعوا أنهم وضعوا لبعض هذه الأمور أسماء وظن

القاصرون أن هذه الأسماء تحمل الاشكال ، وتحكي حقيقة الحال !
وسمعا سماعا لا يستطيع الرب منه البقاء أن أشخاصا يشفون أمرضا
معضلة بغير علاج ولم يقل لنا علماء الابدان في تحليل هذا الامر الا انه
شفاء بالوهم فيا عجب ما هو هذا الوهم الشافي ولماذا لا يشفى بالوهم كل شخص
حالة المنوم تنويما مغنطيسيا هي من الادلة الصريحة في هذا الباب
على شدة غرابة أمر هذا الموجود الصغير الكبير واستعداده لحرق الحجب
الكثيفة ، وقد القيود الحسية ، وعمله الاعمال العظيمة . من غير حركة
يبدىء ، أو واسطة يأتيها !

هذا حديث نفسي وخلاصة مظهر لي أن الروح خلق مستقل ذو
ظهورات فائقة ، واحتجابات محيرة ، هو أقسام كثيرة ، نصيبنا منه
عظيم ، وارتقاء نوعنا لولاه عديم ، هو الحي السميع البصير المريد
المستعد للظهور والاجتنان ، المصنوع آية كبرى دالة على جامع الاكوان ،
وظهر لي أن خصائص الروح الشوق ، ولو قلت إن الروح هو الخلق
ذو الشوق لما وجدت هذا غريبا في تعريفها . ولكل روح شوق يناسبها ،
وعلى نسبة شوقها تكون رتبته وصفها في عالمها الذي هي منه ، وفي عالم
المثال والعيان الذي دفعها اليه شوقها الى الظهور

كانت روح هذا السيد بعل سيدتنا « خديجة » من اعلى الارواح ،
وكان شوقها اذكى شوق واقدس ، كانت عظيمة الشوق الى رؤية فاطمها
ولكن هل الناظر عز وجل يرى ؟ لعلمها حارت زمنا في هذا الامر ؟ ولعلمها
قالت لو كان يرى لكان محدودا وكيف يدخل في حد من برأ الحدود ؟

ولعلها عادت الى زيادة التبصر فقالت هل الرؤية مخصوصة بهذه الباصرة؟ وهل يشترط أن يكون المرئي متشخصاً؟ أليس القصد من الرؤية العلم؟ ألا يمكن العلم بالفاطر مع انه غير متشخص؟

هذا ما كانت تحوم حوله هذه الروح العلوية التي كان مظهرها وبيتها الصوري في بيت « خديجة » ومطافها ومطارها ملكوت الحق، ملكوت الوجود الاعلى

ولعلها يئست من أن تجد فيما حولها ما يروي اوارها من معرفة فاطرها الذي اشتد شوقها اليه بل لعلها غلب عليها ذلك الشوق حتى أصبحت زاهدة في كل رؤية وكل سمع، لانها تريد أن ترى وتسمع الذي اليه طارت شوقاً، ولذلك رأينا « محمداً » صلى الله عليه وسلم قد حبت اليه الخلوة والانفراد ولا سيما اذ شارف الاربعين من سنيه، وكان لغار « حراء »

الحظ من هذه الروح الخائمة على حبيبها وطبيب شوقها

من ذا الذي يعلم غير الله ما كان يتوله هذا المنقطع في ذلك الغار؟ ولكن يصح لنا أن نظن بأنه كان يساقط الدموع ويناجي المتصود المطلوب بقوله : رباه ! رباه ! كيف الوصول الى حضراتك ! كيف السبيل الى مشاهدات تجلياتك ؟ اليك أيها المولى من مزيدحي : قياي وقمودي، وركوعي وسجودي ، ومن مزيد شوقي : ذرف دموعي ، وفرط ولوعي ، رحماك رحماك ياربني ! كبد تذوب ودين تسيل ، وفكر يتدله ، وأنت انت مطلوبي وانت أنت ذو الكرم والجود!

على هذا المثال كانت حاله ، وهذا هو العمل الروحي الذي شغل به

له (١) وقد فهم القريبون من فهم الروح مقدار فوائد هذه النجوى القدسية أما البعيدون عن هذا الشوق فيعجبون وينكرون ، وليتهم يتذكرون نحن الناس وتدهلهم بهذه المتغيرات من صور وأشكال لا تتوقف الحياة عليها ، ولا يجدون الطمأنينة لديها ، هذه المحن والتدهلات أقضى بالعجب لعمر الحق لو كانوا يعقلون . وأما ابتعاد روح عن المحسوسات في سبيل الاقتراب من حضرة من لا تدركه الابصار فسمي وراء مبتغى جليل .

العمل الذي فيه لذة لا مضرّة على الغير فيها لا ينكره عقل ، ولا ربّاب لأعمال الروحية لذات لا يستبدلون بها كل لذات المفتونين بالمحسوسات عسى أن يتذكر العقل المستقل هذا المعنى فلا يكبر عليه أن يفهم أقل الحكم في الأعمال الروحية وهي لذة أربابها وانتعاشهم وتفتح بصائرهم لرؤية المعالي كما هي فلا يحزنهم شيء بعد في نيلها ولا تقف همهم أمام حزن في طريقها كانت السيدة « خديجة » شديدة الفهم وعظيمة الثقة ببركات هذا لعمل الروحي فساعدت عليه ولم تلم صاحبه ولا عتبته ، كانت عظيمة الايمان ، القوة العظمى ، والحيقة الكبرى ، فلم تر بأسا بل لم تر إلا الخير بتوجه وجه زوجها الكريم تلقاء سوايح الامدادات الفائضة من لدن ذلك الملكوت لذي لاحد له . كانت قد عرفت أن هذا الغار في « حراء » الفارغ من كل شتهى حسي كان حريا أن يكون مثابة لهذا الشبح الشريف الحامل قلباً ندفراغ من كل شيء غير الوله بالمعالي القدسية ، والشوق إلى الحضرات لربانية ، فكانت تبارك على هذا الغار الفارغ وتسال الله أن يملأه معالي

(١) ويفهم من القرآن أنه كان يتفكر في ضلال الناس بالشرك والفساد في الارض ويطلب من الله الهداية إلى المخرج من ذلك (ووجدك ضالا فهدى) (١٦ خديجة)

وبركات وقد أجاب الله تعالى بكرمه سؤالها وكتب « حراء » في الصف الاول بين الاماكن التي تتوج بتمجيد الناس وحياتهم ومحامدهم . وكم قد ترجمت قرائح الشعراء عن احتراماتهم وتكريماتهم لهذا الغار أو لهذا المطامع الذي فاق بدره البدور قال قائل منهم :

سلام عليك حراء الشبير أمطلع ذاك الضياء العظيم
سلام فؤاد ذكور شكور بقدر الذي قد صحبت عليم

**

لانت يتيمة عقد الوطن ففبك أضاء السراج المنير
بذكراك يلقي الفؤاد السكن فذكراك ذكرى عطاء كبير

الفصل السابع عشر

(بين روح وروح)

أو

(بدء الوحي)

في « حراء » حدثت الحادثة الاولى من التأريخ الجديد الذي سنرى فيه بل السيدة « خديجة » فائقا فواقا عظيما مدهشا : وهذه الحادثة العظمى التي هي مبدأ هذا التأريخ هي أن روح محمد (صلى الله عليه وسلم) اجتمع هناك في « حراء » بروح غير بشري وأبلغه هذا الروح الغريب رسالة شأنها عظيم

نحن في الفصل السابق ذكرنا من أمر الروح ما فيه كفاية ، ذكرنا فيه ما لعل القاريء ينشرح به صدره الى القول بوجود موجودات ذات

حياة على أنواع شتى ولا يشترط في بعضها أن تكون لها أشباح كالأشباح لبشرية . وهذا قد سبقنا البشر كلهم الى القول به ولم يشذ عنه الا قليل هم كلهم قائلون ان بين الروح الذي هو انسان وبين الارواح الاخرى تصالات ، فأنا كاتب هذه السطور لست بمبتدع خبرا ليس له مثال بذكر هذه الحادثة التي قد يراها غريبة من يحبون التباعد عن الروحانيات ، ومن يؤمنون بها أحيانا ويكفرون بها أحيانا من حيث يشعرون ومن حيث لا يشعرون

هذه حادثة عظيمة في السيرة التي نحن آخذون بتحريرها ، ونحن مقتنعون بوقوعها ، ولا يدعونا الى استماع هو اجس المنكر الا الحرص على القيام بحسن المرافقة . فان كان المنكر ينكر عالم الروح من حيث هو فالحق أن حيلتنا البيانية معه قليلة ، ولسكني أظن أن محادثتنا اياه بهذه المسألة في الفصل السابق قد تجديده . وان كان ينكر العلاقة بين الروح الذي هو الانسان والارواح الأخرى فليس لنا ما نتوسط به الى ابلاغه هذا المشهد غير نفسه ، فليرجع اليها كثيراً وليدقق في حديثها جيداً . وان كان ينكر صدق محمد (صلى الله عليه وسلم) في تحديته بهذه الحادثة مع أنه لا ينكر وقوع مثلها لغيره فالخطب في مذاكرته سهل

كان « محمد » ﷺ صادقاً شديداً الحرص على الصدق واشتهر منذ حداثته بلقب « الامين » قد عرفنا صدقه كما عرف الناس شجاعة أناس من الشجعان ، وكرم أفراد من الكرماء ، وعلم جماعة من العلماء ، وكما عرف بنو اسرائيل صدق الانسان موسى الذي كان قد سمع الكلام الالهي ، وظهرت له الارواح العلوية ، وكما عرف النصارى صدق الانسان عيسى

الذي كان روحاً من الله ، وكما عرفوا صدق تلاميذه وأنصاره الذين
حكوا حكايته وبشروا بشارته

هذا الصادق الأمين رجع ذات يوم من «حراء» منتقع اللون، مرتجف
الصدر ، يعلوه اضطراب الوجل الحائر ، وخشوع الخبت الصابر ، فما
وقع نظر السيدة «خديجة» عليه حتى عرفت أن أمراً عظيماً قد ألمّ به .
نفثت لأول وهلة قلبها ، وساءلت بسرقة البرق نفسها : ماذا أصاب
حبيبي ؟ ماخطف ذلك القلب الذي لا تنزعه الرجال ، ولا تجزعه الاهوال ،
مابال ذلك الصدر المبسوط تثنيه الرجفات ، ومابال ذلك الطرف القدير
تكاد تبادره العبرات ؟ رباه ! رباه ماذا أصاب حبيبي ؟ قل لي أيها الحبيب
ماذا أصابك ؟ حنانيك قل لي ! قل لي !

— دثروني دثروني

— لأصبر لي عن معرفة الامر الآن فقصه عليّ

— بينا أنا في «حراء» اذ جاءني روح فقال لي اقرأ قلت له «ما أنا بقاريء»

فأخذني وغطني غطلة (*) وقال لي « اقرأ » قلت « ما أنا بقاريء » ثم
غطني الثانية وقال لي اقرأ فقلت « ما أنا بقاريء » . قال لي : (اقرأ باسم
ربك الذي خلق * خلق الانسان من علق * اقرأ وربك الاكرم *

الذي علم بالقلم * علم الانسان ما لم يعلم)

— ألم تسأله من أنت ، ومن جاء بك ، وماذا تريد مني ؟

— سمعته يقول أنا جبريل جئت أبلغك رسالة ربك

هذه هي الاولى من الكلمات التي سمعها محمد (صلى الله عليه وسلم) من ذلك الروح الذي ظهر له باسم جبريل وهو من النوع المسمى ملائكة والآن قد فتح لصاحب «حراء» بابان : باب حيرة جديدة وباب هدى فأما الحيرة فظاهرة يكاد يراها كل من سمع هذه الحادثة فان ظهور الارواح غير البشرية لافراد النوع الانساني ليس من المألوف ، فاذا صادف أحد الافراد شيئاً من هذا القليل لا يقوى طبعه البشري لاول وهلة على تحمل مواجهته والانس به . كل واحد منا يعرف هذا من مفاجأة الامور التي لم تكن تخاطر في باله مع أنها من الامور التي تقع كثير أفسكيف الحال بالامور التي وقوعها نادر الى حد أن بعض الناس لا يصدق بوقوعها

انه ليخيل الينا أن صاحب «حراء» قد دهش لما سمع صوت ذلك الروح يناديه «اقرأ» يخيل الينا أنه قال في نفسه : رباه ما هذا الذي أسمع؟ رباه ليس ههنا من بشر فهل يتكلم غير البشر؟ رباه ماذا يراد بي؟ انني أعلم أنني في يقظة لا في منام ، وانني اسمع كلاماً لا ريب فيه ، وانني أحس بضغوط يضغطني ولا عهد لي بمثل هذا من قبل! رباه ان هذا أمر يدهش فكن اللهم عوني ، وخذ بيدي ، وثبت فؤادي ، وقوني على مواجهته اذا عاودني .

نعم انه ليخيل الينا أن المفاجأة بذلك الروح هكذا كان يتناجى في نفسه ويتناجى ربه بمثل هذه الكلمات وهو ذاهب الى خديجة فلما لقيها قال «ثروني ثروني» واختصر لها الحديث اختصاراً
 دثرته «خديجة» وجعل العرق يتصبب منه . وقد عاوده الروح بعد

ذلك . وقال له (يا أيها المدر * قم فأندر * وربك فكبر * وثيابك فطهر
والرجز فاهجر * ولا تمنن تستكثر * ولربك فاصبر)

ان من يفاجأ بمثل هذا جدير بالحيرة وهذا ما أشرنا اليه هنا ولكن
مع هذه المفاجأة قد أونس باسم ربه في مكان هذا الاسم الجليل حرياً ان
يكون دواء شافياً من تلك الحيرة وكافياً أن يفتح باب الهدى والطمأنينة
الروح «جبريل» يقول له أنا من عند ربك، جئت أبلغك رسالته ،
جئت ألقى عليك وحياً من عنده ، وفي هذا الوحي الذي جاء به مفتاح
لتلك المغالقات التي أشرنا إليها آنفاً التي كانت تقف أمامه دائماً . . في هذا
الوحي مبدءاً ارشاد وتبريف له بربه خالق الانسان ، في هذا الوحي اهاية
بفكره لتناول معارف عليا ، وتعاليم عظمى ، في حقائق الوجود

كانت الحيرة تردفها الحيرة . وأما هذه الحيرة فان الهدى يردفها
لان العناية الالهية ظهرت أتم ظهور ، والعطاء الرباني سلم جلياً لتلك اليد
التي كانت مرفوعة في «حراء» تلتقاء السماء

وكان أول معراج عرج بصاحب هذه اليد عليه الى تلك الحضرات
القدسية هو اعلامه علم اليقين بأرواح عالية تتكلم هي غير الارواح
الانسانية الحالة في هذه الصور البشرية وذلك بجعل واحد من هذه
الارواح واسطة بينه وبين مفيض الحياة والعلم والارادة

هذه عناية كبيرة جداً لم يرو التاريخ وقوع مثلها الا لقليلين : منهم النبي
ابراهيم ، والنبي موسى ، والنبي عيسى (عليهم السلام)

يقول له الروح «جبريل» (اقرأ باسم ربك الذي خلق * خلق الانسان
من علق) فهذا القول العربي الجليل يصور له من النشأة المادية في خلق

الانسان صورة يتجلى فيها عظيم قدرة الباري المصور، وعظيم ضعف هذه الصورة البشرية لولا روح الله الممد لها

يقول له الروح «جبريل» (اقرأ وربك الاكرم* الذى علم بالقلم* علم الانسان ما لم يعلم) وهذا القول المحيد يصور له من النشأة الروحية في كون الانسان صورة يدهش الالباب فيها عظيم صنع الله في ترقية الانسان بواسطة قصبة لا يؤبه لها لدى النظر . نعم بواسطة قصبة نعني بها القلم كان الرقي العظيم العقلي لهذا الكائن الذي خست العناية الازلية نوعه بمزيد خصائص

وغريب في الامر أن المواجه بهذا الخطاب لم يكن من ارباب اليراعة بل كان أمياً لا يعرف القراءة ولا الخط بالقلم فما معنى أن يكون أول وحي يوحى اليه هو الامر بالقراءة والتنويه بالقلم لا بدع . لا بدع . ان معنى ذلك هو تكريم الله عز وجل على البشر باعطائهم آية أخرى يفقهون بها أنه قادر أن يعلم من لدنه بغير ما عرفوا من الوسائط من شاء ما شاء إذا شاء . وأن يجعل غير القاري قارئاً ولكن يقرئه بالروح صحفا ربانية قد أنزلها الله على قلوب البشر بأساليب شتى أجلها وأعلها هذا الاسلوب

ما أجل هذه العناية وما أجدر « خديجة » بالسرور الذي ليس فوقه بها ولكن هل عرفت هذا السر الرباني تماماً ؟ نعم كان قلبها القوى خليقاً أن لا يفزع أمام هذه الحادثة التي هي غريبة في ظاهرها بيد أنها كانت محتاجة أن تطرق تفسير هذا السر وهذا المظهر الجديد من ابوابه

الفصل الثامن عشر

عظم المنة باتساع المنة *

كان محمد (صلى الله عليه وسلم) قوي القلب جدا تدل على ذلك سيرته كلها من أولها الى آخرها . ولكن مهما قوي قلب أمام الحوادث المعتاد وقوع أمثاله بين الناس فلا يدل ذلك على انه لا تأخذه روعة أمام صوت غير بشري ، يهيب به الى أمر غير حسي . لذلك لا ينبغي أن نستغرب الروعة التي أخذت لأول وهلة ذلك القلب القوي العظيم فانه دعي من لدن الحق بواسطة الروح الى وظيفة تنوء بحملها المنز ، ويجب بحسب حدودها قاب السنن

إي لعمر الحق لاغرابة في روعة تنقض الظهر ، اذا حدثت لمن نودي هذا النداء بهذا الامر ، وبديهي احتياج هذا المأمور الى شرح الصدر ، والتأييد ورفع القدر ، ولا بدع اذا ضمن له كل تأييد من أراد أن يكون قلبه محلا لتنزلات وحيه الأعلى

نعم ألت الروعة بقلب صاحب « حراء » لما نزل عليه الروح بما نزل به عليه وقد صرح خديجة بذلك وقال لها « لقد خشيت على نفسي » ولكن التأييد حاف به ، والايناس صاف من حوله ، وناهيك أن في منزله

(* المنة الاولى بكسر الميم وهم معرفة والثانية بضمها وهي القوة قوة النفس

الذي اليه يثوب روحا شريفا كأن الله قد أوجده خاصة لتأييده وشرح صدره باديء بدء هو روح السيدة « خديجة »

لم تكن هذه السيدة أقوى منة من بعلمها الكريم ولكن هو واجهته روائع الجلال مواجهة ، فأخذته بين حيرة وشوق وخشية عجز عن القيام بالوظيفة . وأما هي فسمعت بالأمر سماعا ، ووجدت للتفكير فيه مجالا ، ولا يناس الرفيق مقالا

ولو بُدِئت امرأة بما بدت به هذه السيدة من هذا النبأ العظيم وكان ينقصها ما حلها الله به من الفطنة وبعد الإدراك وسلامة الفطرة وما أعطاهما من قوة التمييز في وزن الأمور ومعرفة مقاييسها لتراخت مفاصلها ووهت قوتها أمام هذا الحادث الغريب . ولكن العناية الأزلية التي لها اليد في اظهار هذا المظهر الادلى قد أتمت العمل من أوله الى آخره ونسقته على أحسن منوال فلا بدع بما نراه في هذه السيدة من الصفات التي تساعد على استقبال أمور عظيمة لأنها خلقت لتكون زوجة لذلك الرجل الذي سيأتيه أعظم الأمور ويأتي به

تفكرت « خديجة » في هذا الأمر وأخذت تسائل نفسها بنفسها وللأمل ههنا وجه وللخوف وجه : فالأمل يقول لها ان الامين لصادق وان روحه لركية قوية لاسلطان لروح الشر عليها والروح الذي جاءه انما بلغه باسم ربه أنه اصطفاه رسولا والله على هذاقدير ، وباختصاص من شاء بما شاء جدير ، وأي شيء يمنع رب العالمين اذا أراد أن يتكرم على هذا البيت بانزال وحيه فيه فيغدو بعد الآن مشرقا لاتضاهيه المشارق ،

يفيض النور على القبائل والشعوب ، انت الالههم على هذا قادر اذا أرنت
ولا مانع لما أعطيت ! والوجل يقول لها ماهذه الحال التي أخذت ، حبيب
قلمي فراغت ، اني لا خشى أن يكون أمراً جسمانياً بحتاً كما قد يعرض
للأفراد ، اني لا أخاف أن يصبح هدفاً لرمي الاضداد . ولكن سرعان ما غلب
الأمل على الوجمل ، والمنة على الضعف ، ووشكان ما تبدت لها وجوه الادلة
على أن ما أتى عليها الكريم هو يريد خير عظيم ، ومقدمة فلاح عظيم ،
وكانت أدلتها على ذلك دقاية ، ونقطة تقدمت العقاية ، منها على الثانية

الفصل التاسع عشر

(الأدلة العقلية)

لما قال « محمد » (صلى الله عليه وسلم) لخديجة « لقد خشيت على
نفسي » قالت له « كلا والله ما يخزيك الله أبدا . انك لتصل الرحم ، وتحمل
الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق ،
وتصدق الحديث ، وتؤدي الأمانة »

ان هذا الكلام الذي صدر منها على الفور هو نتيجة معرفة سابقة ،
هو نتيجة تفكير جميل قد أعطى الثمرة سريعا ، هذا الكلام الوجيز يؤلف
استدلالاتا عقليا من أعظم الاستدلالات فانه قد أتى سادجا نظيفا لا غبار
عليه من التكلف ، ولا شيء منه يوافق أمام الذهن ، هو قياس باهر
النتيجة ، مطوي بعض الحواشي ، ومن أبدع الاقيسة نظاما ، ومن أجملها
وقعا ، بيد أن الافهام كدأبها في التفاوت ، وعلى سنتها في التخالف ، لا

يستغني كثير منها عن تشريح هذا القياس لتطلع على قلبه وأعضائه واحدا واحدا . حينئذ يلوح لها انطواء الافادات الغزيرة ، في هذه الكلمات الوجيزة ، وتعلم من قريب أن الحكمة بيد الله يؤتيها من يشاء

(١)

يخرج من كلام هذه السيدة أن النوع الانساني محل لعظيم تجليات رب الانواع كلها . ولذلك يجب كل ما يؤدي الى تسامي هذا النوع وتخلق الاسباب لذلك وأخذ بيدها لتتغلب على ما أظهره بحكمته التي لا نعلمها من أضدادها

(٢)

ويخرج من كلامها أن الله عز وجل مطالع على أعمالنا ومجاز عليها وأنه يحب منا أعمالا ويكره أخرى وأن الذي يحبه منا على حسب تفكرها هو الاستقامة ومساعدة بعضنا لبعض ولا سيما مساعدة الضعفاء

(٣)

ويخرج منه أن من يفعل الخير لا يأتيه الا الخير . والخير الذي نعبّر عنه بهذا اللفظ قد جاء في عبارة السيدة بتفصيل أعمال كلها من باب مساعدة الانسان للانسان فهذه المساعدة في نظرها كل خير أو هي كل الخير فهل يكفي الله فاعل الخير بغير الخير ؟ ان هذا على حسب تفكرها لا يكون

(٤)

ونتيجة قياسها أو أقيستها أن هذه رسالة ربانية فيها الخير لا الضير ، وأن الله عز وجل سيتفضل بتأييد هذا المأمور في حمل هذه الامانة على ثقلها وصعوبة تأديتها لقوم ينكرونها ولا يعرفونها

الفصل العشرون

شرح حكمة السيرة خديجة

ان محيط جلال الله الذي ليس له حد ، ولا تبلغ سفن العبارات شيئاً من سواحل التعريف به حق التعريف . وانما هي لتستعين النفس على بث حبها له عز وجل وتمجيدها اياه ويزداد شوق النفوس الى الكمال ، وتعبدوها لذلك الجلال ، لقد عزت صفات واجب الوجود عن أن ترسمها اللغات ، كما عزت ذاته عن أن تحدها الجهات ، وأن حقيقة لها فوق المجاز والاستعارات لكن الانسان خلق عظيم الشوق الى تصور ربه ، وغير صبور عن الاشارة الى وصفه ، وليت شعري أنى يبلغ الواصفون صفة من كنهه محتجب في خزائن الغيب الاعظم ؟

لقد نقد صبر الانسان في هذا الامر من قديم الازمان وأقدم على وصف ربه فلم يجد غير الاستعارة حيلة فوصفه بما يتصف به الانسان نفسه ولذلك وقع تناقض كثير في أوصاف الواصفين لأن رب العالمين غير حادث ولا تشبهه الحوادث تعالى عن ذلك علواً كبيراً

ولقد ظهر بين البشر رجال منهم أتتهم الارواح وكلمتهم من عند الله فأيد كلام الله بواسطة الروح ما درج عليه الناس من الاستعارة فأصبح هذا الامر عاماً لا فرق بين الناس فيه الا فيما اختلفت فيه عباراتهم .

والافكار المستقلة تؤدي الى قبول هذا الاسلوب أيضاً لان التفاهم

في هذه الابواب لا يستغنى عنه ولا يمكن الا بالعبرة

إلى الله سبحانه يرجع كل شيء فهو أنشأ الانسان على هذا المثال ،
وهو علمه ماقد عرفه إلى الآن ، وخلاصة ما عرفناه من ظواهر التكوين
أن الباريء المصور عز وجل لما أراد أن يكون هذا الانسان ممزاً علماً
أظهر الأشياء أمامه مبنية على التضاد ، وجعل تميز الأشياء بأصداها ،
وأودع فيه ضدّين جعل عليهما مدار سيرته كلها في حياته هما الاستحسان
وضده ، وجعل مع الاستحسان الشوق والحب ، ومع ضده النفرة والبغض .
واقضى ناموس التضاد الذي عليه مدار تمييز الانسان أن تتخالف أفراد هذا
النوع في الاستحسان وضده ، فكثرت أسباب تخالفهم فشأ بينهم الضدان
المسمى أحدهما خيراً والآخر شراً . واحتاجوا إلى جواذب تجذب
الخير ودوافع تدفع الشر فرجعت كل معارفهم إلى معرفة هذه الجواذب
والدوافع . ومن نما منهم علمه بها وسما عمله على موجب هذا العلم سموه حكماً
وهل جائز أن يكون بعض أفراد الانسان حكماً والباري غير حكيم ؟
كلا ، ثم كلا . بل ليست حكمة الانسان إلا من الله ، والله هو العليم الحكيم
نعم ، بيد أننا نفقه معنى حكمة الانسان لاننا نميزها بضدها وليس

لعلم الله وعمله و ارادته جل جلاله من ضد

انظر تجدنا نعرف ، الاسرار في كل دقيقة من الدقائق التي يؤلف
الانسان منها شكلاً من الاشكال لان الانسان انما يصنع ما يصنع للاحتياج
والاستفادة وأما الذي أراد ظهور الاشياء بهذا التنوع فلم يرد هذا الحاجة
أوجدوى تعود عليه . ثم انظر تجد أننا نسمي ما يصنعه الانسان لالفائدة
عبثاً ولا نسمي عمل المستغني عن الفائدة عبثاً مع أننا لا نرى فائدة في عمله
لأنه لا استفناؤه وتقده ، ولا المصنوع من مبدن ونبات وحيوان وغيرها

فاذا أمعنت النظر يظهر لك أننا لا نستطيع أن نعلم ماهي حكمة الله في ظهور الاشياء على ماهي عليه ولكن نقص هذا العلم لم يمنعنا عن القول بأن له حكمة في كل شيء وتعلم من هذا وضوح عجز العبارة في كشف خدور هذه الحقائق مع عدم الاستغناء عنها

ثم إذا رجعنا النظر إلى علاقة هذه الظاهرات بالانسان يبدو لنا أمر يحمل على مزيد التفكير والتذكر ، ذلك أن كل شيء منها يفيد الانسان حكمة اذا تصدى لقراءته على صفحات الاعتبار ، ان الانسان ليرى اذا تأمل نظاما بديعا في هذه الظاهرات ويرى له نصيبا في كل شيء منها فمن هذا الوجه قد يصح لنا القول بأن من جملة حكم الله تعالى في هذه الظاهرات تجلي آلائه وكرمه بجعل علاقة النفع والانتفاع بين هذه الانواع والصنوف التي لا تحصى وبين هذا الكائن الصغير الجرم

هذه العلاقة ظاهرة يكاد يراها كل من تأمل في استفادتنا معشر البشر من كل هذه الظاهرات . أما محبو الحكمة فيعمقون نظرهم ويتلمسون الاسرار في تشكلاتها وتألفاتها على هذه الوجوه والاوزاع . ولو فرضنا أنها جاءت على غير هذه الوجوه لتوجهت أنظارهم الى استجلاء فوائدها ثمّة أيضاً لأنها كلها من الله ، وما من الله لا يكون عبثا بل يستفيد منه الانسان حكمة أو شيئا آخر ، فكأن الانسان أكرم من كل هذه الظاهرات وكأنه هو المقصود بأن تنكشف له الحكيم والاسرار الربانية

هذا هو الاساس الذي أقيمت عليه قواعد حكمة الانسان وهو مبدأ سيره لمعرفة حكمة الله الحكيم الاعلى جل جلاله وتقدست أسماؤه

حكمة الانسان في الحقيقة هدية ربانية يختص بها مرجع الاشياء من أراد اظهاره سليم الفطرة ، حاد الفكرة ، فهو يكون كثير الذكر ، قليل النسيان ، والكائنات كلها عبر ، وتعلم لمن تذكر . وليست حكمة الانسان تلقينا يقدم له كل امريء ويؤتاه كل احد في كتاب يكتب ، او خطاب يخطب ، لكن مع أنه لم يكن أحد مستعداً أن ينال الحكمة نجد الحكمة ذات بركة شاملة تزور بيوت غير الحكماء ايضا فتملأها فوائد كثيرة من غير أن يشعر أربابها بحركتها وحركة حاملي لواثها

* * *

كانت السيدة « خديجة » ذات نصيب من هذه الهدية العلمية الربانية هدية الحكمة ، وقد رأى القاريء أنفا شيئاً من حكمةا وجميل تفكرها وتذكرها ونحن في هذا نشرح ذلك الاجمال . ونزيد المقام خطاً من ذلك الجمال : (١) فهي رأت ان النوع الانساني محل اعظيم تجليات رب الانواع وأنه سبحانه يحب كل ما يؤدى الى تساني هذا النوع . وحق ما رأت فان اظهار هذا النوع على هذا المثال هو أوضح ضياء يرى به المدبج أن الله سبحانه أحب أن يعرف فاقترضت ارادته ظهور هذا النوع مستعدا للمعرفة وعظيم الشوق اليها . والانسان في ظهوره جسم وروحا وتفاوت أفراده بالارواح تفاوتاً عظيماً قد أصبح دون ريب من أكبر الآيات في هذا الباب على ذلك الشأن العظيم من المراد الالهي ، وأضحى مجمع أسرار وكنز حقائق لا يماري فيها الا من جعل النسيان بينهم وبين الملسكوت الاعظم حجباً

ومن المشاهد أن الباري عز وجل يخلق الاسباب المساعدة على ترقى هذا النوع ويأخذ بيدها لتغلب على ما أظهره بحكمته التي لانعامها

من أضدادها . اننا قد شاهدنا ما جرى ويجرى من الدفاع والجدال بين جواذب الانسان الى حنادس الجهل ، وجواذبه الى مشارق العلم ، فوجدنا الغلبة للثانية على الاولى وحسبك ان الانسان بعد ان كان كسائر الحيوان لا يفقه غير حاجته الى عشب يصد به ألم جوعته ، وماء يرد به ألم عطشته ، أصبح يعرف الغوامض من أمور الكواكب ، ويحسب من حر كاتها ما هو أقل من لمح البصر حتى تسنى له بذلك ان يعرف متى يكون الخسوف والكسوف ، ودع عنك معرفته بما فوق الثرى وما تحته ، ودع عنك توصله الى استخدام ارواح السارى في هذه الظواهرات الدنيا نغني به الكهرباء ودع عنك استفادته من الارواح العليا : واتيانه بواسطتها بالانباء البعيدة والمحجوبة

(٢) ورأت السيدة «خديجة» أن الباري عز وجل مطلع على اعمالنا ومجاز عليها وأنه يحب منا أعمالا ويكره أخرى . . . ومن تذكر ما حررناه في مقدمة هذا الفصل يعرف أن مثل هذا التعبير يقصد به تصوير معان من كمال الله تعالى فهو سبحانه محيط بالوجودات كلها وقد جعل لها سندا من جماتها أن جعل أفراد النوع الانساني محتاجين الى ارشاد بعضهم لبعض ومعاونة بعضهم لبعض ولا تنس أن الله سبحانه قضى بالتضاد ليميز به الانسان فما قرب من سننه محبوب عنده ، وما بعد عنها مكروه لديه . هيات ! هيات أن نعرف ما معنى محبته سبحانه وكراهيته لانه سبحانه لا ضده ، ولكن هذا العجز لا يثنينا عن الاعتقاد بأنه يحب ما ينفعنا ويكره ما يضرنا كما هو مقتضى حكمته ورحمته بحسب ايماننا وانما خلق الضار والمكروه مع النافع والمحبوب ليتم ناموس التضاد الذي قضت به حكمته

ومن أَمِن، النظر بكل ماسلف هنا يتبين له أن في مقدمة المحبوب لديه مساعدة بعضنا لبعض ولا سيما مساعدة القوي للضعيف. ومن يرزق هذا الروح لا يكون الا سليم الفطرة ، طيب القلب ، غير متهيج لنقص حظ ، ولا متعال بزيادة نصيب ، فلا يكون الا محبوباً تأتية المساعدة من قبل عالم الغيب وعالم الحس والشهادة

(٣) على هذا ترى هذه السيدة أن الله سبحانه لا يكفي فاعل الخير بغير الخير في هذه الحياة ، وأهل الملل يقولون هذا القول باعتبار ما يلقي المرء في الحياة الثانية التي انما تكون لنيل الجزاء ، وأما في هذه الحياة فهم من يذهب هذا المذهب الذي ذكرناه ومنهم من يقول إن فاعل الخير يتلى في هذه الحياة بالشرور (١)

ونحن لا ينبغي أن ننسى أن مذهب هذه السيدة شوق لفعل الخير لان المجازاة عليه في هذه الحياة والحياة الاخرى مما يزيد محبيه حبا فيه. واليه أذهب ، وبه أثق ، ولا عبرة بمن يشذ عن قاعدة هذا المذهب بمن ظاهرهم الخير والله أعلم بسرائرهم

هذا بعض تفصيل لما جاء مجملا في حكمة السيدة «خديجة» ولم نسوغ الزيادة على هذا المقدار خشية تعب الرفيق القاريء ومنه يعلم رفيقنا أن هذه الاستدلالات العقلية كافية لمن كان له قلب سليم كقلب سيدتنا أن يعرف معرفة تدفع الريب أن الروح الذي وافى معدن الخير محمداً (صلى الله عليه وسلم) إن هو الا روح خير وسلام ، وفلاح ونعمة واكرام ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم

(١) الصواب انه قد يتلى بها ، ولا يكون فوله للخير سبباً مباشراً لها

الفصل الحادي والعشرون

(الدليل النقلي)

اقتداء الناس بعضهم ببعض أمر قد أفتته طبائعهم عظيم الألفة. وربما كان من سنخ غرائزهم ، ومن مادة تصورهم ، إذ رأينا ه عريقا في مرافقة الاجيال ، والتنقل في الانسال ، وموغلا في الرسوخ والاستقرار ، والدوام والاستمرار ، لا يرحزهم شيء منه ، ولا يفصل بينهم وبينه فاصل

هذا الاقتداء نفع البشر كثيرا ، وأضرَّ بهم كثيرا ، فاما نفعه اياهم فلا أن الاكبر سنا ، والاكثر فهما ، والاشد قوة ، والاكثر تجربة ، يجعلون المقتدين بهم يتدثون حيث انتهوا هم ، ويمهدون لهم مالا يستطيعون أن يمدوا لانفسهم ، ولو بقي الطفل والغبي والضعيف والغرَّ خالين من طبيعة الاقتداء لراحت أكثر التجارب والاختراعات والتفكرات والاعمال العظيمة سدى ، ولولا الاقتداء لما تعددت الاعمال والصناعات ، ولا كثرت البدائع ، ولا ارتقى التمدن ، ولانما العمران ، ولا سما النظام . وأما اضراره بهم فلانه ساق أحيانا الى الاقتداء بالجاهلين والمفسدين ، ووقف أحيانا بأقوام مع ماسن لهم اسلافهم وقفة الصخور ، وجعلهم يحرمون ما يأتي على أيدي الحكماء من الهدى متى خالف ما عرفوا من قبل ، وان اصبح ما عرفوه منكرا لدى أهل زمانهم أجمعين

البحث عن نفعه وضراره ، ووضع الموازين للدرجات فيه ، لا قرابة بينه وبين موضوعنا ، ولكن اتخاذ الناس بعض كلام الآخرين من جملة الأدلة

هو الذي حملنا أن نقدم هذه الكلمات في وصف عراقة وبيان أن بعضه نافع كما وقع للسيدة «خديجة»

كان للسيدة «خديجة» ابن عم قد شبع من الاغوام ، وارتوى من حديث الانام ، قد تعلم العبرانية وقرأ بها الاسفار ، وعرف بها الاديان ، ورضي بدين ابن مريم (عليه السلام) ديناً ، وهو « ورقة بن نوفل »

هذا الشيخ الجليل كان جديراً أن يكون اماماً لخديجة تتخذ قوله حجة وهدية معتصماً لان هناك وجوهاً كثيرة تدفع عن نفسها الريب بأن هذا الرجل أعلم منها بهذه الامور وانه لا يصدر عنه الا النصح لها . فهو بالدرجة الاولى ابن عمها بل بحسب السن مع القرابة هو في مقام ايها ، فلو أن ورقة غشاش مخادع لما كان منه الغش والخداع لبنت عمه فكيف وهو مستمسك اذ ذاك بدين ذلك الانسان المملوء قدساً الذي كان اكبرهم مهة حث الناس على التحاب وتقع بعضهم لبعض ، ونهيهم عن التشاحن وايداء بعضهم لبعض . وهو مع قرابته وسمو التعاليم التي تزكت بها نفسه كان في نظر خديجة سامي الهمة جداً ذلك ما حملها على الاسراع اليه لتقص عليه الخبر وترجع في هذا الامر الى علمه وأخذت معها بعلمها ليقص هو نفسه على سمعه ما رأى

كان ورقة بحسب ما قرأ وعرف بمصدقاً بأن ليس هذا الهيكل البشري الا مظهر الشيء يحل فيه هذه المدة القصيرة باذن الله وهو الروح ، وأن للروح ظهورات غريبة في بعض الهياكل ، وانه توجد ارواح من شأنها الاجتنان بين الحس والعيان تتمكن من الانسان من حيث لا يشعر ، صنف منها يحب جذبه الى سبيل التكمّل ، وصنف منها يحب بقاءه في

حضيض البهيمية ، يقال في العربية للاول ملائكة والثاني شياطين
كان مصدقا بكل هذا ومؤمننا أيضا بان بعض الارواح الذين هم
الملائكة يختصهم الفاطر المصور بمزيد خصائص ويجعلهم نواويس أي وسطاء
الوحي الأعلى للذين يريد سبحانه أن تكون ظهورات الروح فيهم سامية جدا
كان قد قرأ الانبياء وعرف مجيء الارواح اليهم وعرف أنه يقوم
أنبياء كذبة وأنبياء صادقون وأن لهؤلاء وهؤلاء علامات . فنحن لما سمعنا
ذهاب خديجة الى هذا العالم المسيحي خطر ببالنا أنه لا يكون سهلا تصديقه
بتدسية الروح الذي أتى محمدا (صلى الله عليه وسلم) لان يوحنا الرسولي
يقول في رسالته الاولى « أيها الاحباء لا تصدقوا كل روح بل امتحنوا
الارواح هل هي من الله لان أنبياء كذبة كثيرين قد خرجوا الى العالم .
بهذا تعرفون روح الله . كل روح يعترف يسوع المسيح أنه قد جاء في
الجسد فهو من الله ، وكل روح لا يعترف بيسوع المسيح أنه قد جاء في الجسد
فليس من الله » ولكن الذي خطر ببالنا أن وقوعه صعب قد رأيناه أمرا
واقعا فان ورقة بعد أن سأل بعل ابنة عمه بضع مسائل قال له هذا هو
ناموس موسى أي الروح الذي جاءه والظاهر أنه لم يقل هذا القول ولم
يصدق هذا التصديق الا بعد أن عمل الامتحان الذي أوصى به يوحنا الرسولي
وظهرت له العلائم الدالة على أن الروح من الله على حسب ما تعلم من الكتب
نحن لا ندعي العلم بتفسير هذه الكلمات التي ليوحنا ولا طريقة
الامتحان التي أشار بها ولكن نظن أن ذلك العالم القريب من ذلك العهد
بالتنسبة الى زماننا هذا كان لا يحفل بهذا التفسير . وكذلك لا ندعي العلم
بتفسير قول موسى لبني اسرائيل « ان نبيا مثلي سيقم لكم الرب إلهكم من

اخوتكم ١ ولا تفسير الاصحاح الثاني والاربعين من « أشعياء » ولكن يظهر لنا أن ورقة قد فهم من قول موسى هذا ومن اشعياء أنه سيكون نبي من العرب يكون مقامه حوالي سلم ذلك الجبل المعروف في البلاد العربية. وهذا نص ما في أشعيا :

« ١ هوذا عبيدي الذي أعضده مختاري الذي سرت به نفسي وضعت روحي عليه فيخرج الحق للامم ٢ لا يصيح ولا يرفع ولا يسمع في الشارع صوته ٣ قصبة مرضوضة لا يقصف وفتيلة خامدة لا يطفئ ، الى الامان يخرج الحق ٤ لا يكل ولا ينكسر حتى يضع الحق في الارض وتنتظر الجزائر شريعته * هكذا يقول الرب خالق السموات وناشرها ، باسط الارض وتأنجها ، معطي الشعب دليها نسمة والساكين فيها روحا ٦ أنا الرب قد دعوتك بالبر ، فأمسك بيدك ، وأحفظك وأجعلك عهداً للشعب ونورا للامم ٧ لتفتح عبوز العمي ، لتخرج من الحبس المأسورين من بيت السجن الجالسين في الظلمة ٨ أنا الرب هذا اسمي ومجدي ، لا أعطيه لآخر ، ولا تسبيحي للمنحوتات ٩ هوذا الأوليات قد أدت ، والحديثات أنا مخبر بها ، قبل أن تنبت أعلمكم بها ١٠ غنوا للرب أغنية جديدة ، تسبيحه من أقصى الارض ، أيها المنحدرون في البحر وملؤه (?) والجزائر وسكانها ١١ لترفع البرية ومدنها صوتها الديار التي سكنها قيدار . لتترنم سكان سلم من رءوس الجبال ليتهفوا ١٢ ليعطوا الرب مجداً ويخبروا بتسبيحه في الجزائر »

قد قلت وأعيد قولي اني لا أدعي العلم بتفسير هذه الكتب ولكني لما رأيت ورقة قال لزوج بنت عمه هذا هو ناموس موسى بحثت عن منشأ

قوله هذا فوجدت فيما ذكرت أنفا من قول موسى وأشعيا ما يشبه أن يكون مأخذاً فمن أراد أن يقول لي لا يفهم من قول موسى وأشعيا ما فهمت لا يمجدي أسفا على ددم اصابة ظني بخصوص ما حمل ورقة بن نوفل دلي قوله هذا فانه يجوز أن يكون قد عرف ذلك بغير ما ظننته . ولست في هذا المقام بذى حجاج ومناظرة إن أنا ههنا الا كاتب سيرة أجتهد باستقصاء فروع حوادثها وتفسيرها على قدر فهمي ومبلغ ما وصلت اليه من النقول وههنا مسألة جلية لا نستطيع مفارقة هذا المقام من غير أن نوضحها ونسهل فهمها على القاري وهي أن الارواح قد تعلم بعض الاشياء قبل وقوعها اذا كشف الله تعالى لها عنها بواسطة النواميس أو واسطة غيرها هذا المعنى كان بنو إسرائيل يقولون به كما كان كثير من الامم الاخرى تذهب اليه وقد جاءت كتبهم حاملة سلسلة من أخبار هؤلاء البشر الذين كان الروح الالهي ينزل عليهم فينبئهم بما سيكون وتبتديء هذه السلسلة المهمة في كتبهم بحديث نوح الذي أنبئ فأنبأ بأنه سيكون طوفان ويموت كل من على وجه الارض ويهدي الى صنع الفلك فصار الطوفان ونجا هو وأولاده ونسائهم وتناسلوا بعد الطوفان ثم تشرقوا ثم اصطفى الله من هذه الانسال ابراهيم (*) وكان ينزل عليه روحا من عنده وشاخ ابراهيم وزوجته سارة من غير أن يصير لهما نسل ولكن حبلى منه أخيرا هاجر جارية زوجته ونزل عليها الروح وقال لها سيكثر نسلك فلا يعد من الكثرة فولدت له إسماعيل ثم انبئ أن زوجته سارة ستحبل وتلد بعد هذه الشيخوخة

(*) ابراهيم بن تارح بن ناحور بن سروج بن رعو بن فالج بن عابر بن شالح بن أرفكشاد بن سام بن نوح (كذا في سفر التكوين)

وطول هذا العقم فولدت له اسحاق، وانبيء أن نسل اسحاق سيكون كثيراً أيضاً. وغضبت سارة على هاجر فطردها وغلامها فنزل على هاجر الروح وقال لها لا تخافي لأن الله قد سمع صوت الغلام وسيجعله أمة عظيمة وكان الله مع الغلام فكبر وسكن في البرية بركة فاران التي قال عنها موسى ان الله سبحانه تلاً لأفئها

وتأخذ كتيب بني اسرائيل بعد ذلك بسرد أخبار من تناسل من اسحاق بن ابراهيم وأما أخبار من تناسل من أخيه اسماعيل فلا تذكرها فان اسحاق يعقوب وهو اسرائيل كان الروح ينزل عليه ، ويوسف بن يعقوب كان الروح يجيء إليه

ويوسف هو سبب مجيء بيت يعقوب الى مصر وهناك تناسلوا وكثروا حتى ولد فيهم موسى صاحب الشريعة الشريعة . هذا أيضاً كان يذا وينزل عليه الروح وهذا قال لتومعه « ان نبيا مثلي سيقم لكم الرب الهكم من أخوتكم » وأسس موسى لبني اسرائيل ماسكا على الوحي الروحي وخلفه بعد موته تلميذه يوشع بن نون وبعد موت يوشع بدأ الفساد والضعف يحل بهم ثم انتشلهم داود وسلمان وتعاضم الملك في أيام سليمان ثم طرأت عليه بعده الطواريء حتى زال . ولم يخل زمان من أزمنة ملوكهم وبعد هامن نبي أو عدة أنبياء حتى نزل الروح أخيراً على مريم أم عيسى وبشرها بأنه يكون لها ولد من غير أن يمسه بشر . وقد ولدت مريم عيسى على هذه الصورة التي بشرت بها وصار نبيا أيضاً ولكن قومه كذبوه ولم يصدقوه إلا قليل . وقد كذبوا من قبله أكثر الانبياء الذين كانوا يندرونهم زوال الملك اذا ظلوا على الفساد

أنا لا أعرف لماذا يكذب بعض الناس بأشياء هم مصدقون بمثلها ،
أو يصدقون بأشياء هم مكذبون بمثلها . هذا أمر وقع كثيراً ويقع دائماً أمام
أعيننا وأسماعنا فهل التصديق والتكذيب بحسب وزن الاشخاص ، وما هو
الميزان في الاشخاص ؟ أم بحسب وزن العقل وما هو سبيل العقل في التصديق
والتكذيب بمثل هذا ؟

أنا أرى أن من آمن بسعة قدرة الله ، وبمعجائب صنع الله ، ونفذت
بصيرته لرؤية آثار روح الله ، وآمن بمجيء ناموس الله لعبده موسى ، لا ينبغي
له أن ينكر قدرة الله في إخراج عيسى من مريم بغير واسطة بعل ، ولا
يجدر به أن يكذب نزول روح الله عليه كما نزل على أخيه موسى . ومن
آمن بمعجائب موسى وعيسى ابني اسحاق ونزول روح الله عليهما لا ينبغي
له أن يستبعد نزول هذا الروح على أخ لهما من بني اسماعيل

هذا أقوله للذين صدقوا بما هنالك من العجائب والغرائب الموسوية
والعيسوية ، وأما الذين لا يصدقون بهذي ولا تلك ، ولا يحكمون إلا الحس
والعقل ، فهؤلاء أمضي بهم إلى التجارب والمشاهدات وأنا واثق أننا لنعدم في
خزائنها كثيراً مما يؤيد أن بعض البشر يخبرون عن بعض الحوادث قبل وقوعها
فإن قال لي هؤلاء نعم قد يوجد أناس على هذا النحو ولكن ليس
هذا سبب إخبار من روح كما تقولون ، قلت لهم إذا توافقنا في ثبوت الاصل
فلاضير علينا بعد ذلك بالاختلاف في الاسباب وأسماؤها

وإن قالوا لي ما الفرق بين هؤلاء الذين قد نراهم في أزمنتنا هذه من
هذا القبيل وبين من تحدثوننا عنهم ؟ قلت لهم إن هذا الفرق ظاهر لأن
الاختصاص كله من الله فهو يعطي انسانا معرفة بعض الوقائع الآتية

ويجعله شارعا وقائد أُمم ومؤيدا بتأييد عظيم لا تحيط به العبارة ويعطي أنسانا آخر مثلا صغيرا من هذه المعرفة من غير أن يجعله شارعا وقائد أُمم ومؤيدا بتأييد عظيم، فالاول يقول 'نا نبي أو أنارسل ويظهر الله صدقه فما يقول ، والثاني لا يستطيع أن يقول هذا وان قاله لا يظهر قوله حقا. فهل ينكر هذا الفرق الكبير ذو بصيرة لا يبدوها الا خلاص الى الله والادب مع مجالي أمره ، ومظاهر سره ؟

لقد كان ورقة على ماظهر لنا شديد الاخلاص متوغلا في علم الروح ومعرفة النواميس الاسمية وأخبارها؛ وكان على نور فراسة من ربه وسرعة استطلاع ، فلما سمع هذا النبأ الجديد تفرس بصاحبه وتذكر ما نقل عن الانبياء وأصحاب النواميس من قبل ، وتذكر قول موسى لقومه بني إسحاق « سيقم الله نبيا مثلي من اخوتكم » وما اخوتهم إلا بنو اسماعيل فقال له هذا هو الناموس الذي نزل على موسى

ثم تذكر ايداء الناس للانبياء مع قول اشعيا « لترفع البرية صوته ، الديار التي سكنها قي دار » وقي دار هو ابن اسماعيل ، وقوله « لتترنم سكان سالع » وسالع او سلع جبل على مقربة من « يثرب » من أشهر جبال العربية فلاح له أن قريشا ستضطرب هذا النبي الى مفارقة بلده « مكة » فقال له « ليتني فيها جذعا — أي شابا — اذ يخرجك قومك »

وبعد برهة قليلة توفي ورقة. أما « خديجة » فاستمسكت بكلام هذا الرجل أيما استمساك وأضافت علومه الى ما قد عرفته هي بدلالة عقلاها وتجربتها فأصبح إيمانها بنبوة بعلمها ورسالته الى الناس اثبت من الرواسي

الفصل الثاني والعشرون

(الايمان والآيات وخوارق العادات)

قال بعض الناس في تلك الايام لادجب اذا آمنت «خديجة» ببعلمها فان رابطة الزوجية تستدعي مثل ذلك ولكن ذا القدرة العظيمة قد أتى هؤلاء القائلين بما يعارض مزاعمهم اذ طفق بعض من سمع هذا النبأ يؤمن به ولم يبق المصدق به «خديجة» وحدها فاضطروا أن يحتدوا أسبابا أخرى للايمان به

حرب فكرية قامت أمام هذا النبأ الجديد عند شيوعه ، ارتجت له مكة وما حولها ، وانقسمت الافكار ، وتباينت الانظار ، وفي مثل هذه المواقف يعرف الراجحون بحسن الفطرة ، وقوة الفطنة ، اذ يكونون من السابقين في رؤية الدقائق ، والوصول الى الحقائق

قال نفر منهم :

« لقد عرفنا محمداً طول هذه السنين فما عرفنا الكذب صاحباً له ، ولا عرفناه صاحباً للخداع ، وقد قام اليوم يخبرنا بأمر وقع له ليس هو بدعا من الامور ، ولا هو بضارنا شيئاً . أتانا يخبرنا بأمر يشبه ما نسمعه عن أمر موسى نبي بني اسرائيل ولم يكن أمر موسى الا نفعاً لقومه فلعل الله سبحانه يريد أن يهدي إلينا نفعا بواسطة هذا الرجل الصادق الامين منا »

قالوا :

يقول صاحبنا إن روحاً أتاه وأوحى اليه ما أوحى ، ولا شيء من

هذا يبعد عن العقل اذا تأدب العقل ووقف أمام بحر القدرة الازلية
الابدية وقفه العارف أن هذا بحر لا حد له . ويقول انه أمر بتبليغ الناس
هذا الوحي وما سيتلوه
قالوا :

« ان هذه الدعوى عظيمة فان كان ما ادعاه حتماً كان من العار العظيم
والضرر الكبير أن نرد هدية ربنا عز وجل الذي اهدى اليها العقل من
قبل وهو يعزز اليوم تلك الهدية بهدية أخرى ربما كانت من نوعها، وربما
كانت من نوع أدلى، وهل يرد حامل العقل مثل هذه الهدية بعد أن يذيقه
العقل طعم الرشد والمعرفة ويأتيه بروائح ما يهب الفاطر جل وعلا من
صنوف المعارف . وان كان ما ادعاه غير حق فان حبله سيكون قصيراً لأن
لدينا دقولا ولا يضرننا حينئذ ظهور أمره »
وقال نفر :

« لماذا يدعي الصادق الامين هذه الدعوى ان لم تكن صحيحة؟ هل
فقد عقله؟ كلا فاننا لانزال نرى صحته واعتداله على أمتها، هل تغيرت أخلاقه؟
كلا فان من الاخلاق ما يرسخ مع كثرة الاعوام وقل ان يئس الصادق
مائناً . كلا بل الامر جد ، والدعوى صدق ، وان لهذا الامر لناصرًا من
قوة ساقته بعد أن عاش أربعين سنة - الى الاتيان بهذا الامر الغريب
الصعب عليه ، وان الايمان بقدرة الله تعالى ليدعونا الى اجابة هذا الداعي
من لدنه ، وان الاخلاص ليدفعنا الى اعلاء الكلمة التي تنزلت اليها فضلاً
من ربنا ورحمة ، إنا به مؤمنون ! »

كان في مقدمة هذا نفر أبو بكر ذلك الرجل الذي لم يعرف الى ذلك الوقت بعيب عند قومه وليت شعري لماذا تجول الظنون وتحوم في تلمس الاسباب لايمان أمثال هؤلاء الافاضل مع اتفاق العقلاء على أن الذي رسمنا صورته من تفكراتهم هو المطابق لحكمة المعتدلين

القاتل ان «خديجة» انما آمنت ببعائها لانه بعائها هو في سعة من ظنه هذا اذا شاء. ولكن بما مهدنا له من المثل بايمان أي بكر تمنى أن يكون انتفع بمعرفة أن طريقة ايمان «خديجة» كانت أعلى مما يظن

ان الذي آمن به أبو بكر ثم مئآت ثم ألوف ذيره لا يجوز للعاقل المنصف ان يحرم زوجته العاقلة من شرف الطريقة التي آمن بها هؤلاء الافراد ثم الجماعات

ان ظنون الناس تكون على حسب اخلاقهم وطباعهم وتصوراتهم فالذين يصرون على ادعاء أن السيدة «خديجة» لم تؤمن بهذا الروح الجديد الا لان صاحبه هو بعلمهم إمّا جامدون في معرفة الاخلاق البشرية على شيء يستعيز العاقل بالله من تفاهته وهو القسم الرديء منها، وإما هم مجبولون على العناد وامامهم مستعظمون لتصديق الانسان بالامور العظيمة من غير أدلة وآيات نحن لا نسوغ لانفسنا أن نعيب أحدا ممن كان حظهم قليلا من

علم اخلاق الناس ولا ندعي أنا نستطيع بالكلمات القليلة التي نقولها الآن بمساعدة واذن من الصدد أن نودع في أفكارهم علما جديدا واسعاً ولكننا نستطيع أن نذكرهم بان أخلاق الافراد ليست على شاكلة واحدة، بل منها ما هو في أسفل السفلى ومنها ما هو في أعلى العلى، ومن الناس من يغلب عليهم من الصدق والاخلاص ما يملك قلوبهم ويجعلها بعيدة عن التصنع

والرياء ، وعن الارتياب بالامور التي ليست غريبة عن محيط القدرة والحكمة والعناية الازليات اذا حدث بها المعروفون عندهم بالصدق والامانة ، ويجعلها قريبة من كل ما فيه تمجيد اسم الفاطر جل وعلا وتعظيم مظاهر أمره وسره . وبعد هذه التذكرة نستطيع أن نقول لهم ان سيدنا هذه كانت من أهل هذا الخلق الجليل كما تشهد سيرتها . ومتى ترحزح هؤلاء عن مركزهم في علم الاخلاق سهل عليهم أن يشتركوا معنا في معرفة انه ليس نحكموا على « خديجة » باخرمان من الايمان الصحيح المبني على أسباب صحيحة لا على كونه بعلمها

وأما المحبولون على العناد ، والغرور والاعجاب ، فلا نتعجبهم بسماع أقوالنا اذ ربما أتت ثقيلة عليهم ، ولا نتعب انفسنا بمخاطبتهم اذ قد تأتي علينا ثقيلة . فلهم دينهم فيما توقعهم فيه جبلتهم ولي ديني فيما عشي معه قلبي وبقيت لي كلمة مع الذي يستعظم تصديق الانسان بالامور العظيمة من غير أدلة وآيات كثيرة . إن هذا معذور في نظري والتفاهم بيني وبينه سهل لاني لا أطلب ان يترك ما ييده من النظريات بل أمشي معه في الحديث وهي في يده فنبليغ معه غاية حسنة تصلح ان تكون ملتقى لنا مهما تشعبت حولها آراء أخرى لكل واحد منا

أنا أقول معك يا صاحبي ان الذي يطالبه غيره بالتصديق له أن يطالب هو بالأدلة والآيات ، ولكن اذا سمعت بمصدق ولم تسمع قصة طلبه للدليل والآية فلا تحكم بأنه آمن من غير دليل وآية الا اذا كنت تعرفه من اقرب وتعرف أن بضاعته كلها تقليد الآباء والمعلمين أنت تعرف أن أبا بكر وامثاله ممن صدقوا محمدا (صلى الله عليه وسلم)

لم يكن لهم آباء سبقوهم في تصديقه ، ولا معلمون حملوهم على تأييده ،
وتعرف انهم كان لهم حلوم راقية رائقة ، وألباب زكية فائقة ، فهل تظن
انهم صدقوا بغير آيات بينات ، وأدلة ساطعات ؟

المشارب في الاستدلال مختلفة وأخشى ان يكون مشربك فيه
كمشرب الذين لا يعمدون الاية الا الامر الخارق للعادة ولذا رأيت أن
لا أودع هذا المقام من غير أن أحادثك بالآيات والخوارق بعد أن
أسلفت طريقة « خديجة » على النحوين لتعلم كيف يمكن أن يكون إيمان
كل مؤمن بمحمد (عليه الصلاة والسلام)

إذا وقع شيء خارق للعادة لا يستطيع أحد حينئذ أن ينكر أنه آية
عظمى ولكن ماهي العادة وهل يمكن أن تخرق (أي تخالف) وهل
وقع شيء من هذا ؟

يعنون بالعادة عادة الاشياء وطبيعتها ويعبر بعضهم عنها بسنة الله تعالى
في الكوائن. والذين بحثوا في امكان خرق العادة لم يفرقوا بين شيء وشيء
بل جعلوا الكلام في هذا الموضوع على اطلاقه ومن هنا اشتد خلافهم .
والذاهبون الى وقوع الخوارق لم يذكروا في الامثلة التي أوردوها من
صور هذه الخوارق الا شيئا . يرا جدا لا يصلح ان يلتفت اليه خصومهم
فضلا عن أن تكون به قناعتهم

ان الله عز وجل سننا في كل موجود ، أو نقول ان لكل موجود
عادة وطبيعة ، والشمس مثلا من جملة الموجودات فهل يقول الذين يعتصمون
بالخوارق يمكن أن تصير هذه الشمس برغوثا وتبقى هذه الارض على
حالتها ويظل الناس فيها ناسا يبصر بعضهم بعضا بغير نور ويحيون هذه
الحياة عينها متمتعين بخداائق وفواكه ، ولحوم وشحوم ، ومياه جارية ، وأزهار

زاهية وصيف وشتاء وربيع وخريف . . . الى آخره . . . الى آخره ؛
 أنا لا أعرف ماذا يقولون ولكني مع إيماني كما يمانهم أو أكثر بعضهم
 قدرة الله تعالى يجدوني اذا قالوا في هذه المسألة « نعم » مفارقا لهم وقائلا
 اذا تغيرت سنة الله تعالى في الشمس فصارت هي برغوثا تتغير سنته
 في أيضاً فأصير أنا غير إنسان وغير باحث عن الخوارق

الذي يفهم من هذا المثال أن بحث الخوارق المدون في كتب جميع
 الملل لا يتف أمام نفخة من روح الله الحكيم اذا أراد عز وجل اعلان
 الغيرة على حكمته وسننه، ويفهم أيضاً أن الدين الذي هو من أكبر هدايا
 العناية الازلية لا يتوقف عليها إذ لو توقف عليها وكان لا بد في ظهور صدق
 المأمور بتبليغه من ظهور خارقة لما تيسر تصديق أحد لأن كل واحد حينئذ
 يخترع فيقترح صورة من الخوارق لسنن الله وناظم الكون سبحانه لم يشأ
 الى الآن نثره على ما بهواه المقترحون

الاقتراحات لا أحد لها ولا عد ولا نظام هذا يقترح مثلاً أن يصير
 الشمس برغوثاً، وآخر يقترح أن يصير المشتري عصفوراً، وآخر يقترح
 أن يكون المريخ (طرطوراً) وآخر يقترح أن يصير القمر قريبا، وآخر
 يقترح أن يكون عطارد عطاراً، وآخر يقترح أن تكون الزهرة زهرة
 لا تذبل أبداً، وآخر يقترح أن ينضب البحر كله وتظل الانهار جارية،
 وآخر يقترح أن يصير البحر كله براً أو البر كله بحراً والناس كلهم سمكات
 مؤمنات مصليات صائمات، وآخر يقترح أن يكون التراب كله ذهباً،
 وتبت عليه أشجار التفاح والليمون، والاعناب والزيتون، وآخر يقترح
 أن يصير الوقت كله ليلاً وتحبس الشمس في حجرة من حجرات الملوك

وأخر يقترح أن يصير الوقت كله نهارا ويذهب النوم الى الشجرات الدائمة اليقظة . . . الى آخره . . . الى آخره . . .

نعم إن مبدع منظومات الكون لم يشأ إلى الآن نثرها ولا نستطيع أن نقول إنه ينثرها على حسب الاقتراحات لتأييد الرسل فمافعى مباحثاتنا معشر البشر بأنه هل يستطيع ذلك أم لا يستطيع بعد إيماننا بعدم تحد قدرته وبعد سماعنا وحيه يرشدنا بهذا الكلام العالي (فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا) بعد تقرير هذا أقول إن البشر لا يستطيعون أن يعرفوا كل سنن الله تعالى أو كل عادات الاشياء وطبائعها بل لا يستطيعون أن يعرفوا جميع سرار كائن من الكائنات وجميع طبائعه بالتمام ثم هم لا يعرفون أيضا مقدار عنايته عز وجل بالانسان وانه مازال يمد به بصنوف الهدايا، وأنه قد يشاء اعلان آية له لاظهار عنايته به فيريه شيئا مثلا على خلاف ماتعلمه من عادات بعض الاشياء التي لا يترتب على تخلف المعروف من عاداتها اثر المنظومات ومن أمثلة ذلك أن النار شأنها الاحراق وقد تقتضي سنن الله تعالى لادلاء معارف الانسان وهدايته أن يريه النار غير محرقة لسبب تتعلق القدرة باخفائه ان مثل هذا يقع ونعده من جملة سنن الله تعالى لان من جملة سننه ابداع هذا الانسان واطلاعه على واسع القدرة وبديع الصنعة واحتجاب الحكمة ، واختصاص العناية

ومن هذا التفصيل يتبين للقارىء أنا مؤيدون للآيات لا منكرون لها . وقصارى ما نقول ان الدين لا يتوقف على الخوارق بقدر ما يقترح المقترحون ، ويظن الظانون ، ويحترع المحترعون ، وانما يؤيده الله تعالى بآيات تشرح لها البصائر المستعدة ، ولا نقول إن هذه الآيات فيها

نحو بل لسنة الله تعالى أو عادة الاشياء وطبائعها اذ لا تبدل لسنة سبحانه
وانما فيها معونة ربانية نعرفها بانازها

وربما كرهننا التعبير بالخوارق الذي اصطالح عليه المدونون وان كانت
المناقشة على الالفاظ بغليضة الينا وبعدة عن رأينا . ونحب التعبير بالآيات
(كما عبر القرآن الحكيم) وبالله ما أكثر الآيات! على أن ما أتى به هذا
المختار هو فضل رباني وأمر روحاني

لقد أنبته الله نباتا حسنا، وشمله بالعناية منذ كان في الصبا ثم الشباب،
وهو غير شائن ذلك الالهاب، حتى دخل الكهولة وتناق الى التكمّل، وفي
هذه السن بدأه بتحييب العزلة وتفرغ الفكر من الصور الفواني ليشرق
فيه الجلال الذي لا يفنى، ثم أعلن لروحه روحا من لدنه كما منح هذا من قبله
رجالا كثيرين من المصطفين كإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف
وموسى وعيسى . ومن الآيات أن هذا الوحي صالح مصلح لنا ولم نجده
نطلب منا أن نعبد من دون الله وإنما قال لنا أنا عبد الله جئتكم ببلاغ من
عنده انه وحده له الحكم، وانه وحده اليه المرجع والمآب، ولو قال لنا
أنا الحكم لوجدنا مقترحين عليه أن يجمعنا خالدين، واذا لوجدناه عاجزا
الحمد لله لقد جاءنا هذا الرسول بآيات كثيرة لانستطيع عدّها:

جاءنا بالعلوم وهو أُمّي، وجمع كلمة الشعوب وهو وحيد، ورفع الله له
من المذكّر ما لم يرفع مثله، وجعل هديه باقيا، وعصوته عاليا، وروح تأييده
ساريا، ولنا ليس اليوم بثامن تعجب حين نسمع ايمان أقرب الناس منه واعرفهم
به بل نحن بخديجة وأبي بكر مقتدون، ولربنا على هذه العناية والآيات
شاكرون، وبوحي الله لهذا المصطفى مؤمنون

الفصل الثالث والعشرون

﴿ اعلان الدعوة ، واحتمال الاذى ، والثبات ﴾

لم تقف فضائل السيدة « خديجة » عند ما ذكرناه الى الان من سيرتها بل هي كالينابيع الثور لا تفيض . والآن يشرف القارىء معنا على مجلى من أعظم المجالى لفضائل هذه السيدة الجليلة . جاء الآن دور الثبات في سبيل الحق ، وهذا الثبات لانجده في كل عصر الا في صحائف أفراد ندرتهم بين بني آدم أعظم من ندرة الياقوت بين الحجاره ، وكثرة فوائدهم أعظم من قطرات الغيث

لقد مر على بني آدم ألوف من الاعوام وفي كل عصر وجد منهم ألوف الالوف ومن كل هذا العدد العظيم لانعرف مائة امرأة ثبتن في سبيل الحق مع شدة المعارضة ثبات « خديجة » أما ثبات بعلم الكريم فلا ينبغي أن نقيس^ا به بعد ما قدمناه ثبات أحد ، فانا قد وصلنا في الفصول السابقة الى بيان أنه مؤيد أعظم تأييد ، وأنه سمع الوحي الالهي آراءً اياه أن يقوم بأعباء الرسالة والتبليغ ، فأصبح الفرق بينه وبين غيره عظما جداً منذ أتاه هذا الوحي . وعندنا معشر المؤمنين به أنه هو المختار الأعظم ، والمصطفى الاكبر ، فلذلك لا نرى ثباته في سبيل الحق يعادله أو يقاس به ثبات ظل هذا المختار ثلاث سنين يدعو سرا ثم أمر أن يجهر بالامر فلم يجد الى جانبه زوجة تثبط وتخوف أو يضعف قلبها فتؤثر الراحة وطمانينة البيت على النصب واحتمال الاذى ، بل وجد قرينة صالحة القلب للوقوف

معه بالصبر والسكينة أمام المعارضين والمعارضات وما أشد ما كان أمام هذا الداعي الى غير ما عرف القوم: وما أحوج هذه الحالة الى قلوب كلما كبر المعاندون كيذا تقول « الله اكبر » !

الله اكبر ، كان المعاندون افرادا وجماعات قد امتلكت الانفة والعزة نفوسهم ، واجتذبت قلوبهم ، وامتصت من أفئدتهم الندوة فأصبحت نسيمات الهدى تزدجها ، وحرارة الانذار تكاد تحرقها

قريش وما قريش ؟ ! قبيلة ترى لنفسها السبق بكل فضيلة ، والشرف على كل فصيلة ، لها أنوف شاحخة كأنها تطاول السماء ، وأعناق متلعة كأنها تتصيد كل غلياء ، تعاد كل قوم بالنجباء فتكثرهم ، وتفاخر من تشاء بالعظاء فتزيحهم ، مثلها بين القبائل كالشمس مكانة ، وكالروضة نضرة وعييرا

هذه القبيلة التي حالها ما وصفنا من قوة الشكيمة وشدة الالباء ووزيد التعالي كانت قد أصيبت من الاقتداء بمضرته اذ كانت بعض العقائد التي صادفتها في موردها ومصدرها في البلاد المجاورة قد التصقت بعقولها حتى أصبحت ترى التصدي لاقتلاعها منها اعتداء على حقوقها ، واتها كالحرماتها هذه القبيلة كان لها من نور الذكاء ما يبهر الناظرين ولكن قد تراكت على أفكارها سحائب من آثار التقليد حالت بين ذكائها وبين الحقائق العالية حتى رأيها تدرج مع البلاء في مدرج واحد من تأليه صور صماء عمياء بكماء جامدة قد صنعتها الايدي ، فقامت تحسب أن هذه الصور تضر وتنفع ، وتجلب وتدفع ، وتقرب الى الخالق الأعظم وتشفع ، وراحت تعان أن لهذه الصور مجدا ، وتستحق شكرا وحمداً ، وظلت تصنع لها ما تصنع الامم لا لهتها من ذبحم القرابين ، ونذر النذور ، وتوجه

القلوب وإخبات الصدور، وتعلق القلوب، نعم ساورت تلك العقائد قلوبها حتى أصارت الانفس فيها لا تنبسط لشيء انبساطها لتجيد تلك الالهة ولا تنقبض لشيء انقباضها للطعن فيها أو النقص من تكميمها

هذه حال القوم الذين أمر هذا الرسول أن يقوم فيهم منذرا وداعيا الى معرفة الله تعالى وتوحيده، وكانت قریش تعرف هذا الاسم الجليل الدال في هذه اللغة على واجب الوجود موجد السموات والارض ولكن لم تكن تعرف ما ينبغي أن يكون عليه جلال الذي يعبر عنه بهذه الكلمة من الكمال والبعد عن مشابهة الحوادث، وقد جرّها الجهل بالله تعالى وسننه وآياته الى ما جر كثيرا من الأمم اليه من جهل كثير من الحقائق. وإنّي ما أشبهه نتائج الجهل به عز وجل الا بسلسلة طويلة يستدرج بها ذلك الجاهل الى أسوأ النهايات اذا لم تتداركه الأسباب من غياة الرعوف الرحيم جلت آلاؤه، وتعالّت أسماؤه

ولقد كاد حظ قریش من هذه السلسلة - سلسلة الجهل - يصل بها الى مستقر لا تغنيها فيه الرفعة على أمثالها ممن ضرب الجهل خيامه عند خيامهم، ولا تجديها القوة اليسيرة التي كانت تجدها في اجتماعها ذلك كاد الاتسكال على الاصنام يعفي كل آثار الفطرة منها، ويطمس كل رسوم الذكاء، ويذهب بما تركه فيها من المحاسن بعض فضلاء الاسلاف قبل هدمهم هذه الالهة التي فتنوا بها، أصبحت لا تعي ما فضل الله، ووجه الله، وما عناية الله، وغدت بعيدة عن معرفة ما الروح، وخصائص الروح، وما عبادة الروح، للاحد المحيط بكل شيء، وراحته

معرضة عن العلم بمراقبي الآلهم واتساع دائرتهم، وعن معرفة وظائفهم من
 تميم إرادة الفاظر بإظهار البدائع على يدها، وظهور الآله وآثار أعنيته
 عليها، وأصبح قصارى ما يحول بفكر الواحد من هؤلاء القوم أحد شيئين
 يشلان في ميزان العقلاء: شيء يرضي به وهمه في التزلف إلى تلك الحجارة
 التي اتخذها آلهة، وشيء يرضي به وهمه في الكبرياء، ولم يدر مغرورهم
 أن التزلف إلى تلك الحجارة وأمثالها هو منتهى التسفل العقلي، وأن تلك
 الكبرياء لا تجديهم شيئاً إذا دهمهم داهم خارجي، كما وقع لهم يوم «أبرهة»
 هذه السلسلة الطويلة من نتائج الجهل بالله تعالى وسننه وآياته
 أصبحت قيداً لمداركهم قد أحكمت حلقاته فهم لا يستطيعون مادام موجوداً
 أن يبرحوا ما هم فيه لأن جاذباً منه يجذبهم من حيث لا يرونه كلما تحرروا
 هذه هي السلسلة التي اقتضت عناية البارئ أن تظهر آية عظيمة في
 قدها وتخليص تلك الفطر من قيدها، واقتضت الحكمة البالغة والتدبير
 الاسمى أن يكون ذلك بواسطة من أنفسهم، وأن تجري الهداية على سننها
 في الأولين فيلاقي الواسطة ما يلاقي ويصير ما يصير ويتم الله ما يريد.
 ولذلك لما قام هذا المصطفى يعلن هذه الدعوة لقي تلك الصوامد، وبما تلك
 الصوامد؟ جهل وغرور وكبرياء وعتو وقسوة وفضاظة وتعصب للمألوف
 ونفرة من الوعظ والنصح وإباء أمام الإنذار وطغيان وبهتان وعدوان
 وإقدام على قتل الذي يذكر آلهتهم بما يكرهون

أي قلب لولا التأييد الرباني يحد إلى الصبر حبيلاً أمام هذيم الصوامد؟
 وأي ناصية لولا العون الرحماني تظهر للقاء هذه الصوامد، وأي امرأة
 غير «خديجة» ترى بعلمها في جوف هذه الغوائل ثم لا تزیده إلا حمداً على

القيام بوظيفته وإيناساً بوقوفها معه في وجه كل خصم لدود
أوذي (عليه صلوات الله وتسليماته) بأنواع الأذى لما أسمهم الدعوة ،
تكاثر المفتاتون عليه والمفترون ، وظاهر سوادهم الجاحدون والممترون
من أقرب اقربائه ، ظهر الجافون المتباعدون عنه ، والمهازئون به والساخرون
منه ، دع عنك البعداء ، ومن اكل قلبهم حسد أو بغضاء ، قال المفترون
هو يطلب الملك دليناً ، وقالوا عن الوحي الآلهي هو شعر جاء به إلينا ، وقد
جشروا ما عرفوه من العيوب وأرادوا عزوها إليه لينفروا الناس منه
وينتقموا آلآهتهم التي بددهم ببحودها ، وكشف لهم عوار جودها ، وأيسر
ما فعلوه سبهم إياه والهزء به والافتراء عليه ومجافاته ثم مجافاة من لم يجافه
فعلوا كل هذا وهو متدرع بالصبر ، مثابر على الصدع بالامر ، وفي
هذا كانت معه هذه الزوجة الشريفة الفاضلة تعلم محبي الحق كيف يكون
الصبر من أجله ، وتهدي إلى الاجيال الآتية أجمل صورة لثبات الجأش
أمام الصعوبات

ويأما أحلى الصبر اذا كانت عاقبته كعاقبة صبر هذا الرسول الكريم
فقد كانت العقبي ذلك الفوز العظيم الذي يقل في الدنيا من لم يسمع خبره
ولنعم عقبي الصابرين

— خلاصة الدعوة —

أما الدعوة الشريفة التي أعلنها فهذه أصولها :
(١) العلم بأن لشيء يستحق التأليه إلا الله الخلاق العظيم الذي
لا يشبه الحوادث ولا يشبهه شيء منها

(٢) العلم بأن هذا الباري المصور ذو عناية خاصة بالنوع الانساني ومن عنايته به اتحافه بصنوف الهدايات ومنها الهداية بواسطة وحي أعلى للرسل المصطفين

(٣) العلم بأن هذا الداعي الجديد الى الله هو رسول مصطفى قد أرسله الله بدين يدعو الى السعادة في هذه الحياة وحياة أخرى يوم الجزاء

(٤) العلم بأن الايمان بهذا الرسول يقتضي الازعان والتسليم الى كل ما جاء به هذه أصول الدعوة التي كان مأموراً أن يبدأ بها الناس وهي ملخصة بهاتين الجملتين الشريفتين « لا اله الا الله محمد رسول الله » فمن قالمهما طمئنا بهما قلبه دخل تحت اللواء المحمود لواء الحمديّة الذي يظل مئات الملايين في يومنا هذا

والرسالة الحمديّة لم تكن لتعيش ولا للعرب خاصة بل هي للناس كافة ، ولكن البدء بالعشيرة الاقربين كان هو الذي تقتضيه الحكمة حتى اذا أجابوا كانوا عوناً للدعوة لا عونا عليها

الفصل الرابع والعشرون

بعد عشر سنين

بعد عشر سنين من عهد الرسالة كان المؤمنون قد كثروا واخذ الغناد من الخصوم يزيد ، وجعل الحسد يلتهب في قلوبهم لهذا النجاح الذي كانوا يحسبونه محالاً وكم يحسب أمثالهم مثل هذا الحسابان كان الجاحدون في نار من ذلك الحسد ، والمؤمنون في جنة من

الفرح بنعمة الله ورحمته - كان الجاحدون يفكرون كيف يزهقون هذا الروح الجسد ، والمؤمنون ينتظرون من مولاهم إعلاء شأنه - كان الجاحدون حيارى في هذا الداعي فطوراً يسبونهم وعقلهم فيه ، فيجدونه بعيداً وأحياناً يرجعون الى أنفسهم ويحاسبون حسهم وعقلهم فيه ، فيجدونه بعيداً عن المين وسائر المغان التي كانوا يظنون ، وكان المؤمنون من يقيهم في حفظ عظيم من الطلأينة وأنشراح الصدر وفرح الضمير - يكن الجاحدون يرجعون الى تلك الحجارة فيشكون اليها المحمدين وما أتوه من مخالفة قومهم وتأييد ذلك الرجل الذي لا يذكر آلهتهم الا بسوء ، وكان المؤمنون يرجعون الى من لا تدركه الابصار متوجهة اليه وجوههم ، مسلة اليه قلوبهم ، لا يتوكلون الا عليه ، ولا يأخذون الا بسنته - كان الجاحدون عكوفاً حول تلك الاصنام الجامدة ، وكان المؤمنون ينفقون سبحة الله سبحانه الله عما يصفون ، تعالى الله علواً كبيراً - كان الجاحدون كثيرى الغم والهم ، وكان المؤمنون مع شدة ما لا قوه من الاذى فحين مستبشرين قد أبدل الله لهم مرارة الصبر حلاوة : وذلة القلة عزة .

وفي أواخر تلك الصنين العشر الشداد كان على المرير الاحتضار شخص عزيز جداً عند المؤمنين ولم يشمت الجاحدين في تلك الايام شي مثل مغادرة هذا الشخص لذلك العالم الاسلامي الذي نشأ وترعرع بينهم بالرغم منهم كأن في هذا الشخص العزيز روح ترفرف في هذا المحيط للصغير تارة ترفع البصر الى مقرها الاقدس عند المحيط الاعظم فتحاول الطير ان اليه وتارة تاتي به على هذا المحيط الذي أتمت به فتظال من رقة غليظة وجائحة الى المكوف لانيه ، وكان حجاب من قلوب هذه العالم الاسلامي تمنى بقاءه ،

وجاذب من أمر الله وسنته يقضي بطيرانه ، وأمر الله أعلى واليه المصير
هل عرف القاريء من هذا المودع العزيز ؟ ذلك كان شبح سيدتنا
« خديجة » فقف أيها القلم خاشعا ، لقد ماتت من تركت للفضائل حياة
لا تفتنى ، لقد انتهى هذا العمر الذي أمدك بهذه المواد السامية ، ولن
تجد لك أيها القلم شرفا بعد هذه السيرة الا اذا سرت بنقل التاريخ المحمدي

سبحان رب الكون هذا حكمه في الروح قد سيمت بهذا الواقع
مرآتها هذا الشخوص بها ترى زمنا وترجع المحيط الواسع
لقد مرت روح سيدتنا « خديجة » بهذه الدار فرأينا منها ما نقلناه
للقاريء والآن هي لدى المحيط الواسع فهل تتجلى اليوم على هذا العالم الذي
مرت به وترى أن تلك السكامة التي قاست في سبيلها مع بعابها الكريم
ما قاست قد أعلاها الله تعالى وعظم شأنها ونصرها العرب وغير العرب
وأصبحت برور الارض وبجورها مملوءة كل هذه العصور الى يومنا هذا
بمن يقول من جميع اجناس البشر « لا إله الا الله محمد رسول الله » ؟

وقد ولدت سيدتنا « خديجة » من زوجها الكريم بنين وبنات
وبقيت لها من بنتها السيدة « فاطمة الزهراء » ذرية مباركة في أكثر
أقاليم الارض والحمد لله ، ولكن هل تتجلى اليوم تلك الروح الشريفة وترى
أن كل المؤمنين يعدون اليوم أولادها ؟ . فالسلام عليك يا أم المؤمنين ،
سلام الله ورحمته وتحياته على روحك الطاهرة يا أمه

﴿ فهرس سيرة السيدة خديجة ﴾

صفحة	صفحة
٤ - (مقدمة تمهيدية أو اهداء السيرة)	٤٠ - (الفصل الرابع - مقام النساء في قوم خديجة) ٤٢ وأد البنات - أسبابه ،
٩ - (المقدمة) ١٠ العرب - أصولهم وانسابهم ، ١٢ العرب البائدة ، ١٣ العرب ولد اسماعيل ، ١٤ العرب - اختلاطهم بالأمم ، ١٥ العرب - تاريخهم وعلم النسب عندهم ١٧ العرب - حضارهم قبل الاسلام ، الغسانيون ، ١٩ ملوك كندة ٢٠ ملوك كندة وخبر امري القيس ، ٢١ عدنان وقحطان أصلا للعرب ٢٢ عدنان سلالته ونسب النبي (ص) ، ٢٥ - (الفصل الأول - مكة وحالة قريش الاجتماعية عند البعثة) ٢٧ مكة وحكومة قريش فيها ، ٢٩ مكة حال قريش الحربية وقصة أبرهة ٣١ - (الفصل الثاني - بيوتات قريش وخصائصها) ٣٣ الندوة والاشناق والفيه والاعنة ، ٣٤ السفارة والايثار والاموال المحجرة ، ٣٥ حلف الفضول ونقص نظام قريش ٣٦ - (الفصل الثالث - ديانة أهل مكة	٤١ - (الفصل الرابع - مقام النساء في قوم خديجة) ٤٢ وأد البنات - أسبابه ، ٤٥ مشاركة نساء العرب للرجال في الأمور العامة ، ٤٦ النساء اللاتي شايعن عليا (رض) ، ٤٧ خبر سودة الهمدانية مع معاوية ، ٤٨ خبر بكارة الهلالية والزرقاء الهمدانية مع معاوية ٤٩ دارمية الحجوونية » » ٥٠ - (الفصل الخامس - مقام خديجة عند قومها) ٥١ النساء - ارتفاع شأنهن عند العرب ، ٥٢ المؤلف وغير المؤلف ٥٣ - (الفصل السادس - فضائل خديجة والفضائل عند قومها) ٥٤ المعروف والمنكر ميزانا الارتقاء عند العرب ، ٥٥ تربية ملكتي الكرم والشجاعة عند العرب ، ٥٦ شجاعة العرب ويوم ذي قار ، ٥٧ أشعار في يوم ذي قار ، ٥٨ علوم العرب وحكمهم ٥٩ علوم العرب بالطب والادب ؛ ٦٠ حكم العرب ومحاوراتها ، ٦١ العدل

صفحة

صفحة

عند العرب ، ٦٢ أصول الفضائل	قبل تزوج خديجة (٨٢ ، ٨٣ عناية
عند العرب اعدتهم للاسلام	الله تعالى بالعرب وبعيد المطلب
٦٢ - (الفصل السابع - جمال خديجة	خاصة ، ٨٤ شرف عبد المطلب
والجمال عند قومها) ٦٤ أفضل ألوان	بالنبي ، ٨٥ تاريخ مولد النبي ،
الحسان عند العرب ، ٦٥ استعداد	٨٦ خبر رضاع النبي ومرضعته
العرب بسبب جمال الخلقة الى معرفة	حليمة السعدية ، ٨٧ بركتها عليها
جمال الخالق ، ٦٦ ، ٦٧ وصف	٨٨ وفاة أم النبي ، ٨٩ كفالة أبي
الجمال	طالب للنبي ، ٩٠ تربيته (ص) ونشأته
٦٨ - (الفصل الثامن - ثراء خديجة	اللاتان نشأ عليهما ، ٩٢ رؤية النبي
والثراء عن قومها) ٦٩ قريش -	لحرب الفجار
استعدادها للاسلام ، ٧٠ قريش -	٩٣ - (الفصل الحادي عشر - الحب
حبها للمجد والثروة ، ٧١ قريش -	الشريف) ٩٤ الحب الشريف -
أسواقها بجامع العرب ، ٧٢ صادرات	طبيعة النفس ، ٩٥ محبة خديجة
بلاد الحجاز ووارداتها ، ٧٣	للنبي (ص) ومزايها
حضارة قريش ، ٧٤ التجارة في	٩٦ - (الفصل الثاني عشر - تفاؤل
الجاهلية وأصناف الأموال ، ٧٥	هذا وقته) ، ٩٧ معرفة العرب
النقود والابل في الجاهلية ،	بالنبوة
٧٦ الرقيق والزرع والضرع في	٩٨ - (الفصل الثالث عشر - الخواطر
الجاهلية ، ٧٧ الثروة يبايعها متحدة	في قلب خديجة) ، ٩٩ أمانني
في كل زمان	خديجة وخواطرها في الزواج
٧٩ - (الفصل التاسع - زواج خديجة	بمحمد ، ١٠٠ ضرر التقليد
الأول) ٨٠ الاشارة الى حياة	بالعادة ، ١٠١ خواطر المرأة
خديجة الجديدة	الكاملة
٨١ - (الفصل العاشر - محمد (صلم)	١٠٢ - (الفصل الرابع عشر - الزواج

صفحة	صفحة
١٤٣ أساس ملك اسرائيل الوحي	١٠٤ طريقة خطبة خديجة النبي
والانبياء ، ١٤٤ إمكان الوحي	١٠٥ - (الفصل الخامس عشر - بيت
ووقوعه ، ١٤٥ خديجة - استدلالها	خديجة بعد الزواج)
على صدق نبوته ﷺ بعلم ورقة	١٠٨ - (الفصل السادس عشر - العمل
١٤٦ - (الفصل الثاني والعشرون -	الروحي) ١١٠ ما نحن ؟ ،
الايمان والآيات وخوارق العادات)	١١٩ بحث في العمل الروحي
١٤٧ الايمان بالدليل ، ١٤٨ إيمان	١٢٢ - (الفصل السابع عشر - بدء
خديجة لم يكن بتأثير الزوجية ،	الوحي)
١٥٠ الاختلاف في الاستدلال -	١٢٨ - (الفصل الثامن عشر - عظم
الخوارق لا تغير سنن السكون ،	المنة باتساع المنة)
١٥١ الخوارق. عدم توقف صحة	١٣٠ - (الفصل التاسع عشر - الدلالة
الدين عليها ، ١٥٢ تعذر الاكتناه،	العقلية على صدق الرسالة)
١٥٣ غناية الله بالنبي المختار	١٣٢ - (الفصل العشرون - شرح حكمة
١٥٤ - (الفصل الثالث والعشرون -	السيدة خديجة)
اعلان الدعوة واحتمال الأذى	١٣٨ - (الفصل الحادي والعشرون -
والثبات) ، ١٥٥ معاندة قريش	الدليل النقلي على صدق محمد)
وعدم اهتمامها ، ١٥٦ الجاحدون	١٣٩ ورقة بن نوفل - ايمانه بالدليل ،
والمؤمنون ، ١٥٨ خلاصة الدعوة ،	١٤٠ استدلاله بكتب العهد الجديد
١٥٩ - (الفصل الرابع والعشرون -	على صدق محمد ، ١٤١ استدلاله
بعد عشرينين) ، ١٦٠ الجاحدون	بالعهد القديم على ذلك ،
والمؤمنون - مقابلة . وفاة خديجة	١٤٢ قول بني اسرائيل بالنبوة ،

